مصرع كليوباترا

تأليف

المرحوم أحمد شوقى بك

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

إهـــداء

إلى صاحب السمو الملكى الأمير "فاروق"

ولى عهد المملكة المصرية (*)

فاروقُ يا أزكى نبات الوادى
ولمحةَ الآباء والأجداد
ويامناط العهد من «فؤاد»
الى اليد المأمولة الأيادى
أرفع ما قد وَسِع اجتهادى
وَرِدَ الرُّبا وزَنْبقَ الوِهاد
حوادث قديمة الميلاد
فضْنَ عن الملوك والقُوّاد
وصِرنَ وحىَ شاعرٍ وشادى
وفتنةَ اليَراع والمداد
يَعطفَن كلَّ طيِّب الفؤاد
تَهُزُّه بجَميعة الأمجاد

(*) أهديت إلى جلالته قبل ارتقاء جلالته عرش المملكة المصرية .

وروعة المَقــادر العــوادى
وما خَلَوْن من شعاع هادى
يُبــيِّنُ الغَىَّ من الرشــاد
ومن قصيدٍ مِلْء كل نادى
عَفِّ البيــوت نَزِهِ الأوتاد
تُســيغه مسامــعُ الــزُّهّــاد
وقَصص مُستَحدَث فى الضادِ
يُــؤلِّفُ التمثيــل بالإنشــاد
فى وطنٍ على الفنون غادى
مَسرَحُه كان بلا عمــاد
والــدُّك المُعــانُ بالسَّــداد
أقام رُكنَيْه فكان البــادى
فإن تقبلتَ وذا اعتقادى
جَزَيتَ إخلاصىَ واحتشادى
لجيــلك النــاهض بالبــلاد

شوقى

تمهيـــد

١ ــ زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة « أكتيوم » البحرية وانتحار كليوباترا .

٢ ــ مكانها : فى الاسكندرية وأرباضها .

٣ ــ أشخاصها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .

حابى ...
ديون ...
ليسياس } مساعدو زينون .

هيلانة : وصيفة كليو باترا وبينها وبين حابى غرام
شرميون : وصيفة أخرى .
أوروس : رومانى فى معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .
أولمبوس : طبيب رومانى فى بلاط كليو باترا .
أنشو : مضحك الملكة .
غانمين : ساقيها .
حبرا : عرافها .
أياس : شاديها .
أحيل : قائد الأسطول المصرى وربان أنطونياد سفينة كليو باترا .
بولا : شاعر .
أغا القصر

(ج) النكرات المسرحية : جنود وقوّاد مصريون ورومانيون ، راقصات ، عزاف .

الفصـــل الأوّل

المنظــر الأوّل

«فى مكتبة قصر كليوباترا — حابى وديون وايسياس جلوس الى»
«عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد»

يومُنــا فى أكْتِيُــوما   ذكرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما   هل أذقنــاه الدَّمار!

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا   هزَّ أعطافَ الدّيار
شرفًا أسطولَ مصرا   حُزْتَ غاياتِ الفخار

* * *

صارتِ الإسكندريهْ   هى فى البحر المَنَــار
ولهــا تاج البريــهْ   ولهــا عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دْيونُ)   كيف يُوحون إليه
مــلأ الجــوَّ هُتــافًا   بحيــاتىْ قاتليْــه
أثر البهتانُ فيــه   وأنطلى الزور عليــه
يا له مــن ببّغــاء   عقـــله فى أذنيــه

ديــون :

حابى، سمعتُ كما سمعتَ وراءنى   أن الرَّمِيَّة تحتــفى بالرامى

هتفوا بمن شرب الطِّلا في تاجهم وأصار عرشهمُ فراش غرام
ومشى على تاريخهم مُستهزئًا ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذْكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمسُ الهواء
وكان البحرُ كالميْت المُسَجَّى وكان الليلُ للميت الرداء

ديون :

نعم وهنالك آنسْنا سحابا وراء الليل جللت السماء
فقلتَ انظر ديونُ ترَ الجوارى يَطأنَ الماء همسًا والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين سَوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعنَ رجوعَ فُرسان أصابوا من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لملّاح هُتافًا يُبشرُ بالقدوم ولا نِداء
ولم نَرَ فوق سارية سراجا ولا من ثَقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قلت ديونُ إنى أرى الأسطولَ بالويْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحًا ولا تُزْجَى مواكبهُم مَساء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا نَرَى الأسطولَ أزْينَ ما تَراءى
تبرّجَت البوارجُ بعد عُطْل وهَزَّتْ في ذوائبها اللواء

وردّدَ فى المدينـة أن روما عفا أسطولها ومضى هَبـاء
فضجّ الناسُ بالبُشْرى وكدّوا حنـاجرَهم هُتـافاً أو دُعاء
هداك اللهُ من شَعب برىء يُصرِّفه المُضلِّل كيف شاء

[تدخل هيلانة]

ليسياس [هامسا لحابى] :

حابى : صـهٍ قد ظهرتْ هيـلانهْ وأقبلت بالطلعـة الفتّـانهْ
تَنفَحُ كالزَّنبقة الغَيْسانهْ

حابى : ليسياسُ، أنهاك عن المَجانهْ هيلانةُ فى القصر قهرَمانهْ
لهـا وقارٌ ولهـا مكانهْ

هيلانة : سـلامٌ لك يـا حابى
سـلامٌ لك هيـلانهْ

هيلانة : أُمِرْتُ أن أقول للأمين ستحضُر المَلْكةُ بعد حينِ
فبلِّغِ الأمرَ الى زينون

حابى : سـيدتى سـأفعـلُ أمرُكما ممتثَـلُ

هيلانة : تَقـرِنني بِربَّـتى ! ذلك ما لا أقْبَـل

حابى : هيـلان، أنتِ مَلْكتى وأنتِ وحـدَكِ المَـلَكْ

هيلانة : بـل كيلبـترا وحـدَها لم يَحْـوِ شمسيْنِ الفَـلَك
إن أنت لـم تؤْمِـنْ بها فلسْتَ لى ولستُ لك

[تخرج هيلانة و يدخل زينون من باب آخر فى هيئة تفكير واضطراب]

حابى : ذاتُ الجلالة سيدى ... قد آذنَتْنا بالزياره

زينون : هذه حجرتُها لا عدِمَتْ ... طِيبَ رياها ولاضوء حلاها

كلَّ يوم تتجلى ساعةً ... هاهنا كالشمس فى عز ضحاها

تدخُلُ الدارَ فتنسى مُلكها ... بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها

[محدّثا نفسه فى ركن قصى من أركان المكتبة] :

أما الشبابُ فقد بَعُد ... ذهب الشباب فلم يعُدْ

ويحى أمِن بعد السنيـ ... ـن وقد مرَرْن بلا عدد

أو بعد طولِ تجاربى ... ومكانِ علمى فى البلد

تجْنى الحسانُ علىَّ ما ... لم تجْنِ قبلُ على أحد؟

ديون [هامسا إلى رميليه] :

حاب ، ليسياس ، أقسمُ ... أن زينونَ مغرمُ

فضح الشيخَ حبُّه ... والهوى ليس يُكتَم

ليسياس : بمَنِ الشيخُ مولَع ... ليت شعرى متيَّم؟

ديون : و بمن جُنَّ يا ترى ؟

حابى [ضاحكا] : ... كلُّ خاف سيُعلم

زينون [مستمرا فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أ تَّ ـهم الشبابَ وأضطهدْ
لم ألـقَ رأسًا فاحمـا إلّا حملتُ له الحسـد
ووجدتُ لاعجَ غـيرةٍ بين الجوانح يتقّد
فكأن ظلمـةَ شَعره فى مُقلتىّ هى الرمـد
وكأنما سـرَقت ذوا ئبُهُ شبابى المفتقَد
ولـو آن لى ولداً فما ت لما بكيتُ على الولد
حذَرًا وخـوفا أن يكو نَ بها تعـلّق أو وجَد
شـكٌّ يعـذّب مهجتى إن المشكّكَ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى و يطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى، بـنى

[يأتى اليه حابى]

قل ولا تُخفِ علىّ هـل تُحبْ؟

حابى : أُحبُّ ! من قال ؟

زينون : سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب؟

زينون : بُـنىّ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤَدِّ للشباب ما وجب

حابى [متهكما] :

لكن أأدعى الهوى ... وليس لى منه سببْ؟

زينون : حابى ، بُنىّ لا تَرُعْ ... مِنَ السؤال بل أَجِب

لولا الهوى لم تَكُ فى ... ظل الشباب تكتئب

ما بال بِشْرِك امّحى ... ولونك الغضّ شُحب؟

وللدموع من مآ ... قيك تكادُ تنسكب؟

حابى [ساخرا] :

افقْ زينونُ واصحُ من الغوانى ... أبعد الشيب تخدعُك النساء؟

زينون [غاضبا] :

أتعلم يا غلامُ علىّ عشقًا ؟

حابى : ... دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون : ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون : وكيف ؟

حابى : تَهْذى ... فتفضحك الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يَدرى ... تكشّفَ عن سرائره الغطاء

أبعد العطف والإشفاق يشقى   بصحبتك الشبابُ الأبرياء؟
فكلّ فتى رأيتَ زعمت صباً   يُخامِرُه من الرّقطاء داء؟
وما كعَمّى الشيوخ إذا أحبّوا   وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهى قد فُضِحتُ وضلَّ شيبى   وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى] :

صدقتَ بُنَىّ بى داءٌ دخيلٌ   وليس إلى الدواء لِىَ اهتداء
علىّ تلوّتِ الأفعى ، فهلْ لى   من الأفعى ونَكْزتها نَجَاء؟
أرى ولَهَا وأحسبُهُ جنوناً   كسانيهِ على الكِبَرِ القضاء

حابى : وتُعطَى حين تلقاها ابتساماً   وأنطنيوسُ يُعْطَى ما يشاء
صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ   وللأقداح والقُبَل المساء
أتَرْضى ان يكون سريرُ مصرٍ   قوائمَهُ الدعارةُ والبِغَاء؟
أتهدِمُ أمةً لتَشيدَ فرداً   على أنقاضها ؟ بئس البِناء!
أبى ، شيخى ، اجترأتُ عليكَ فاصفحْ
فلم أكُ أجترى لولا الوفاء



إلهى قد فضحت وضل شيبي وضاعت حكمتي وخبا الذكاء

(صفحة ١٣)

لقد آن التكاشفُ والتواصى — بما توحى الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا، فإنّا — جنود الحق يجمعنا لواء
شبابٌ نحن يعوزُنا شيوخ — بهم فى المدْلهمّةِ يُستضاء

زينون : كفى، إنى نفضتُ يدىّ منها — ومُزّقَ عن بصيرتى الغشاء

حابى : أبى زينونُ قد بُحتُ — من السر بمكنونى
وما غيرُك زينونُ — على السر بمأمون

[يشير إلى ديون وليسياس] :

أخى، هذا أثيني — وخِلّى ذاك مقدونى
كلا الخلّين للحق — كما أدعوه يدعونى
كلا الخلّين ذو جدّ — بأرض النيل مدفون
فليسا فى هوى مصرٍ — وفى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالى — بالجنس وبالدين
ولم نصبر على حكم — لروميّة ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ — ولسنا حزب أنطون
ولا نخضعُ للبأس — ولا نُخْدع باللين
ولم يبقَ على الودّ — لروما غير زينون

زينون : معاذ الله ، عُدُّونى من العصبة عُدُّونى
كساك اللهُ يا روما لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكلُّ داء له فى صَيْدليّتك الدواء
فَهِىَّ لها ابنَ ساعته وعجِّلْ يُعَجَّلْ فى السماء لك الجَزاء
لعل سمومَك الزُّعْفَ المواضى من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكهْ ! لَا بَرِحَتْ مُمَلَّكهْ !
ودام مجدُ المملكهْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها
شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأمناء القصر]

الملكة : تحيّتى لأمناء المكتبه وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السّموات فى مجدها على رَبّةِ التاج ذات الجلالْ
تمنيتُ رأسين لا واحداً إذا مسّتِ الأرضَ هامُ الرجالْ
أُطَأطِئُ رأسًا لمجد النبوغ وأخْفضُ رأسًا لمجد الجمال

حابى . ديون . لسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغنيه عن رأسيـ ـنِ رأسٌ فيه وجهان؟
فحِينًا هو مصرىٌّ وحينًا هو يُونانى
وفى مجلسِ يوليوسَ وأنطونيوس رُومانى
وإن لاقى أغا القصر فنوبىٌّ وسودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة : كاهنَ المُلْكِ سلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـسَ صغارى فى صلاتك

أنوبيس : ربَّةَ النيل التحيا تُ الزكيّاتُ لذاتِك
حرستْ تاجَكِ إيزيـ ـسُ ومدَّتْ فى حياتك

الملكة : هوَ ذا ابنى قيصرونُ يتلقَّى نفحاتِك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصلّى على ابنِ يوليوسَ قيصرْ؟
أبوه عالٍ ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْك ، سادتى ، هل سمعتمْ رنَّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى ؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتى

الملكة : ليت شعرى

أللخير تجمّعوا أم لشرّ؟

شرميون :

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشّطّ يموجون فى حُبورٍ وبِشْرِ
سرّهم ما لقيتِ فى أكتيومٍ من ظهورٍ على العدوّ ونصر
لا يقواون أو يُعيدون إلّا نبأ بات فى المدينة يسرى

الملكة :

يا لإِفك الرجالِ! ماذا أذاعوا كذبٌ ما روَوْا صُراحٌ لَعمرى
أيَّ نصر لقيتُ حتى أقاموا ألْسُنَ الناس فى مديحى وشكرى؟
ظَفرٌ فى فم الأمانىّ حلوٌ ليت منه لنا قُلامةَ ظُفْر
وغدًا يعلمُ الحقيقة قومى ليس شىءٌ على الشعوب بِسر

شرميون :

ربّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعى أنا وحدى وذلك المكرُ مكرى
كثرتْ أمس فى الإياب الأقاويلُ وظَنّ الظنونَ من ليس يَدرى
فأذعتُ الذى أذعتُ عن النصرِ وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصر
خفتُ فى خاطرى عليك الجماهيرَ وأشفقتُ من عدًى لك كُثْر
فاغفرى جُرْأتى، فيارُبَّ ذنبٍ يَتعب العذرُ فيه مهّدْتِ عذرى

الملكة :

شرميونُ، اهدئى فما أنت إلا … مَلَكٌ صيغ من حنانٍ وبِرّ
أنتِ لى خادمٌ ولكن كأنا … فى الملمّاتِ أهلُ قربى وصهر
إنما الخادمُ الوفىُّ من الأه … ل وأدنى فى حال عسرٍ ويسر
اسمعى الآن كيف كان بلائى … وانظرى كيف فى الشدائد صبرى
أيها السادةُ اسمعوا خبرَ الحر … ب وأمرَ القتال فيها وأمرى
واقتحامى العُبابَ والبحرُ يطغى … والجوارى به على الدمِ تجرى
بين أنطونيو وأكتاف يومٌ … عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر
أخذتْ فيه كلُّ ذاتِ شراع … أُهْبَةَ الحرب واستعدّتْ لشرّ
لا ترى فى المجال غيرَ سَبوحٍ … مُقبلٍ مدبرٍ مكَرٍّ مفرّ
وترى الفُلك فى مُطاردة الفُلْ … كِ كنَسرٍ أراد شرّاً بنسر
وتخال الدُّخانَ فى جَنَباتِ الـ … ـجوّ جُنحاً من ظلمة الليل يسرى
ودَوِىَّ الرياح فى كل لُجّ … هَزَجَ الرَّعدِ أو صياحَ الهِزَبْر
وترى الماء، منه عودُ سريرٍ … لغريقٍ، ومنهُ أحناءُ قبر
يغسِلُ الجُرحَ ثَمّ مَن غسَل الجر … حَ ويأسو من الحياة ويُبرى
كنت فى مركبى وبين جنودى … أزِنُ الحربَ والأمور بفكرى
قلت روما تصدّعت فترا شَطْـ … ـراً من القوم فى عداوة شطر

بَطَلاها تقاسَما الفُلكَ والجيـ ـشَ وشبّا الوغى ببحر وبر
وإذا فرّقَ الرُّعاةَ اختلافٌ علّموا هاربَ الذئاب التجرّى
فتأملتُ حالتيّ مَليّا وتدبرت أمرَ صحوى وسكرى
وتبيّنتُ أن روما إذا زا لت عن البحر لم يَسُد فيه غيرى
كنت فى عاصف، سللتُ شراعى منه فانسلّت البوارجُ إثرى
خلَصت من رَحى القتال ومّا يلحق السُّفْن من دمار وأسر
فنسيتُ الهوى ونُصرة أنطو نيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر
علمَ الله قد خذلتُ حبيبى وأبا صبيتى وعَونى وذُخرى
والذى ضيّع العروشَ وضحّى فى سبيلى بألف قُطْر وقطر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه بنتَ مصر وكنتُ مَلكةَ مصر

[ملتفتة الى زينون] :

زينونُ، فصّلتُ الخبرْ عن القتال والسفرْ
وقلتُ عن إيابى وخُطة انسحابى
ما ليس يعلمُ البلدْ ولا درى به أحدْ
فهل لديك الآنا ما يجلبُ السُّلوانا
من الأمالى المُسْليهْ والصُّحُفِ المُلْهِيهْ

قرينون : عنــدى يا مولاتى روائـــعُ الآيات
تِسْعون ألف سِــفْرِ قــد كُتِبتْ بالتّــبرِ
من كل رَقٍّ عجيب فى العلم أو فى الأدب
قيصرُ أنطونيو وهب لنــا مناجمَ الذهبْ
وكلَّ غال مدَّخرْ من الجواهر الأُخَرْ
أســلابه من حربه وطَعنــهِ وضــرْبه
هديةٌ من قيصر لبَــلدة الإسكندر

أنشو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغنىُّ بدُرّ الفــواقــع حين يُرضعُ تِبر العُقــار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فمــا أنا سـوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [مغيظا] :
ولكنها حكمــةُ السائمــات وفلســفةٌ غــيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تَعَــدّى الشعورَ بحُبِّ البقــاء وخوف الدمار

أنشو : رويدك مولاىَ بعضَ السّباب فليس السّبابُ سبيلَ الكبار

هَبِ الليلَ طال فقطّعته ... بِدَرْسٍ وأصبحتَ تُفنِى النهار
وأقبلت بالكتب تطوى الطِّوالَ ... وتَنشرُ فى إثرِهنّ القِصار
وزِدْتَ على الأرض علمَ السماء ... كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفَقتَ ومات الحمارُ ... أبينك فرقٌ وبين الحمار؟

زينون [غاضبا] :
ما ذا تقول السيده؟

الملكة [ضاحكة] : واحدةٌ بواحده
أبى أنو بيسُ، أرجو

أنو بيس : بل تأمُرينَ مُطاعهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهه إليه] :
هذا مُقامُ صلاتى ... وهيكلى للضراعهْ
ولى خطايا كثيرةٌ ... لا تَبرَحُ البالَ ساعه
فادخلْ وصلِّ لأجلى ... فمنك تُرجَى الشَّفاعهْ

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليسياس]

ديون [متهكما] :
إسكندريةُ صرتِ رَفرَفَ معبدٍ ... من كلِّ ناحيةٍ عليه سِتارُ

اختَصَّ آلهــةُ الجــلال بِسرّه ... وتفرَّدَ الكُهّان والأخْبــار
ما خَطْبُهم حابى ، وماذا بيّتوا ... ما هـــذه الألغـاز والأسرار؟

ليسياس :

حابى :

أرأيتَ وقعةَ اكتيوم وما جرى ... فيهــا وكيف تصرّفَ المقدار!
ليسياس ، إنك قد سمعت حديثها ... كالسحر فى الآذان حين يُدار
تبدو الخيانةُ فيــه وهى أمانةٌ ... ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار
وعلمت كيف نجت وكيف انقض عن ... أنطونيُو أسطولُهــا الغــدّار

ليسياس :

واليوم حابى ، أيْن أنطونيو وما ... فعلت بفَلّ جيوشه الأقــدار؟
قل لى : أحىٌّ فى البلاد مشرَّدٌ ... هــو أم له قـــبرٌ بمصر يُزار؟

حابى :

ليسياس ، تسألنى تجاهل عارف ... بل جاهــلٍ لم تأته الأخبـار

ليسياس :

حابى :

لم تأت حــتى جاء فى آثارها ... للحبِّ أجنحةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذته تحت شراعها ... ونجــا به فُــلْك لهــا مِحصار
تجرى الرياحُ بمــا تشاءُ قلوعُه ... ويســـيرُ فى طاعاته التيــار

ويُقالُ غَضبانٌ عليها عاتبٌ ويقـالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقَينِ سحابة وعلى سلامِ الصاحبَينِ غُبـار
آنَ وأقسم لا يُرى فى قصرها حتى يَقُـومَ مجـدُه المنهـار
إن البـلاء أجلُّ من ألّا يُرَى

ديون : عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النـار؟

حابى :

أنطونيو منـا بأقرب مُكنـةٍ يدعو من الرومان من يختـار
ويُعِـدُّ أُهبتَـه ليـوم حاسم فى البر يُغسلُ عنه فيـه العـار
ويكون ميدانَ الرحى ومدارَها تلك التـلالُ وهـذه الأسوار
فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف إما الـدَّمارُ به وإما الغـار

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ مالـكةَ العـالمـينْ
شعبُك لاقى العـذاب من عَبث الظالمـينْ

* * *

يا من خفضـنا الجبـاه لعـزِّها ساجدينْ
صُـغنا إليـك الصـلاهْ من أدمعِ النـادمين

[سـتار]

المنظــر الثــانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين اكتافيوس وأنطنيوس على أســوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليــه هيلانة»

هيلانة : أتدْخــلُ حابى مَقاصيرَها؟ بلغتَ من الجُرأةِ المنتهى

ســتعلمُ أمرُكَ ذاتُ الجلالـة

حــابى : بــل أمرتْ أن ترانى هنــا

هيلانة : عجبــت لهــا ولتــدبــيرها كذلك قــد أمــرتنى أنا

إذن هى تجمعنــا يا جُحُــودُ وتَجــزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى

حــابى : هــلانةُ خلّيك من ذكرِها حديثُ الأفاعى طويلُ المدَى

هيلانة : رُوَيدَكَ حابى لقد أحسنَتْ فمالى أراكَ أسأْتَ الجزا؟

حــابى : هــلانةُ، يا طيبَهــا خَــلْوَةً وإن قَــلَّ فى ظلّها الملْتقَى

تعــالىْ هلانةُ نُعطِ الغــرامَ عِنانَ الحديث ونَشْكُ الجوَى

أبــلى يــدىَّ يدَيْكِ اللّتــيْنِ نعيــمى بينهــما والشــقا

هَلُمَّ هِــلانةُ

هيلانة : حابى أَراكَ بِكُنهِ الأمورِ قليــلَ الهُدَى

من القصر لا تَلتمِسْ خَلْوَةً وإن هو من كلّ حسّ خلا

سماء القصور لها أُذُنان وأَرضُ القصور بِعينٍ ترَى

حابى : هلانةُ لا تقطعى نَشْوَتى بقُربِك أَو حُلُمِى باللِّقا

أمهما تَخَيَّلْتُ صفوَ الحياة خلقتِ على جانبيْهِ القَذَى؟

هيلانة : حنانَكَ حابِيَّ لا تتهمْ ولا تَرمِنى بعُقوق الهوى

ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صَديقُ الصّوابِ عدوُّ الخطَا

فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العنَا

ولكنْ حقوقُ كلوباطْرهْ

حابى : وأى حُقوقٍ لها تُدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا : حُقوقُ الولايةِ ياذا الغلامِ حُقوقُ الرِّعايةِ يا ذا الفتى

وَصبرى عليكَ لأجل الفتاة

حابى [مأخوذا] : إلهى لقد سمِعت ما جرى

الملكة : وسدِّى المسامعَ حُبًّا بها وأَنت تُعينُ علىَّ العدا

وتُرسِلُ فى العَرشِ هُجْرَ الكلام وتُفْشِى الحفيظةَ لى والقلى

ولكنْ لنَنسَ الذى قد مضى فمثلُكَ تاب ومثلى عفا

دع الذَّوْد عن مصرَ لى إننى أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطِـع الفِتْيةَ العابثـين أُسُـودَ الكلام نَعامَ الوَغى
[إلى أنوبيس] [يدخل أنوبيس]
أبى : قد أتيت
أنوبيس : سـلامٌ عليْـكِ شُـعاعَ المدائن نورَ القرى
الملكة : أبى قد تلاقَى هنا العاشقان وكان بتدبيرىَ الملتـقى
فبارِكْ فتـاتى و بارِكْ فتاكَ وكَفكِفْ هواه إذا ما غلا
أنوبيس : حيـاتك حابى كنيسيةٌ يشـا كلُّ أَوَّلُهـا المنتهى
مقيَّـدة باليقـين القَنـوعِ وما أَمَرَ القلبُ أو ما نهى
الملكة : كزَهرِ المقاصير لم ينتفـعْ بطولِ الأديم وعُرضِ الثرى
أنوبيس : وتحسبُ فى الكتب علم الحياة وما منهُ فى الكتب الأشدَا
حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصِهِ يَقيسُ الطريقَ ويُحصى الخُطا
أرى راكبَ الشك ملءَ المجال طويلِ العِنان بعيـد المدَى
ولو شكَّكتْ فى السراج الفَراشْ لكان سـلامًا عليها السَّـنا
أنوبيس : ولكن تمُـرُّ عـلى ما تـراه تُجـاوِزُه نحـو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ [مشيرا إلى هيلانة]

كمولاته طليق الإرادة حُرُّ الحِجَى
تَمَشّى على جَنَبَاتِ الحياة كما يتمشى شُعاع الضُّحى
يخوض الوحولَ ويغشى الحُلّى ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخترقُ العَرَصاتِ الفِساحَ وينفُذ من ضَيّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أُنوف الأسودِ ويلعب بين عيون الظِّبا

الملكة : ولكنه طاهرٌ حيث طافَ نقىُّ الذيول عفيف الخُطا
أبى قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدورُ الرحى
وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهر المدينة رهنُ الوغى
هنالك يُقضى مصيرُ البلاد فإما البقاءُ وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ وما من رسولٍ ولا من نبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى : سيدتى جئتُك بالأخبار لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضَّوارى تحت لواء البطل المغْوَار
قيصرُ أُنطونيو على آثارى

الملكة : يا فرحًا ما أَعْظَمَ البِشاره! حلَّتْ على أُكتافيو الخَساره
«وأَكتيومُ» قد أَخذنا ثاره خُذْ يا رسولُ هذه البِشارهْ

[تمنحه بدرّة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون : سـيدتى يا طـربًا ! سـيدتى يا فـرحًا !
دارتْ عـلى أكتافيُو وجيش أكتافيُو الرَّحى

هيـلانة : مَلْكتى هـل تسمعين
[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة [منصتة] : صـوت بـوق وهتـاف
[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها] :
هـو واللهِ نشـيدى والمُغنون جنـودى
والمخـاريقُ الـتى تَخْـفق من بعْـدٍ بنُـودى
ولـديْهـا فارسٌ مُلْـتئم شاكى الحـديد
يتراءَى فى عِنان الـجوِّ كالبُرْج المَشِـيد
هـو أنطنيـوسُ ذُخْـرى وطَـريفى وتَلِيـدى

[إلى شرميون وهيلانة] :
أيهـا البنتـان هـذى ليـلةُ العيـدِ السعيدِ
صَـلِّيـا مثـلَ صَـلاتى واسجُـدا مثـلَ سجُـودى

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة] :
هو ذا أنطـونيو مِن جانب المينـاء أقْبَـلْ
هيـكلٌ يحمـلُه مِن صـافناتِ الخيـل هيـكل

الـــرِّداءُ الأرْجُوانىُّ على عِطفيْه مُسبل
مَبسمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهلل
هـــو ذا يدنـــو

شرميون : أتى والـــلهِ

هيلانة : مـــولاتى تـــرجّـــل

الملكة [تتقدم الباب] :

أَيها البنتان هـــذى ليـــلةُ العيـــدِ السعيدِ

أنو بيس [هامسا لحانى] :

حابى ، أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم ما بى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى؟ وتأذنين مَلْكتى لحابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنو بيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيتكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة مادا يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانى !

الملكة : مَلِكى !

أنطونيو : عندى لكِ اليومَ يادُنياىَ أخبارُ

الملكة : عَجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمنٍ

الملكة : كرائمُ المال؟

أنطونيو : ما للمال مقدارُ

[يمدّ إليها جبينه فى ضراعة] :

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلةٌ منك تعلوها هى الغارُ

[تقبله]

كليو باترا :

اليومَ تعلمُ روما أنَّ ضَرَّتها تقلِّدُ الغارَ مَن تهوَى وتختار

واليومَ تعلمُ روما أنَّ فارسَها جيشٌ بمفردِهِ فى الرَّوْعِ جرّار

أنطونيو سيدى ، هل نحن فى حُلُمٍ؟ أسالمٌ أنت ؟ لا أسرٌ ولا عار؟

أنطونيو :

أسرٌ؟ وَهمتِ كلو باترا ، أتظفرُ بى أيدى الكُماةِ وفى كفىَّ أظفار

او قلتِ قتلٌ لكان القولُ أَشْبَهَ بي ... كأسُ المنايا على الأبطال دَوّار
الحربُ تعلمُ والأيامُ تَشهدُ لي ... أني شديدٌ على الأقران جَبّار
لو كنتِ شاهدتني والحربُ جارفةٌ ... والصفُّ تحتيَ بعد الصفِّ ينهار
قد جُنَّ تحتيَ جوادي فهو عاصفةٌ ... وجُنَّ نَصْلِي بكفي فهو إعصار
رأيتِ حملة صدقٍ غيرَ كاذبة ... لا السَّيْلُ يحملُها يوماً ولا النار
لما صَدمتُ جناحَيْهم وقلبهمُ ... عن الخيام ومن أَوكارهم طاروا
وما وجَدتُ لأكتافيو وقادته ... ريحًا ، ولم أتبَيَّنْ أَيَّةً ساروا
ومالتِ الشمسُ أَوكادتْ فراجَعَنَي ... شوقٌ إليك قديمُ الداء سَوَّار
حتى رَجَعتُ ولو أني طَردتُهمُ ... لباتَ أكتافُ عندي وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغدٍ ! هذي مجازفةٌ ... غدٌ غيوبٌ وأَسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس] :

أُوروسُ ، أنت بفنّ الـ ... ـقتال أَعلَمُ مِنّي
الحربُ فَنُّك أُورو ... سُ والسياسةُ فني
إن كان « مَرْكُ » إلها ... فأنت في الحرب جِني
فكُنْ بحقِّك عَوني ... وقُلْ لقيصرَ عني



ردّى على هامتى الغار الذى سلبت فقبلة منك تعلوها هى الغار

(صفحة ٣١)

إنَّ المنى لم تُقَصِّرْ بل قَصَّرَ المتمنِّى
فلو صَبَرتم قليلا وسرتمُ فى تأنى
أَرحتُمونى وروما من الخصام المُعَنِّى

أوروس : سيدتى لم تقصدى لما عذلتِ سيدى
عَجِّلتِ فى الحُكم على ما لم ترَىْ وتَشهدى
لقد حَملنا حملة كمثلها لم يُعهَد
استنفذتْ بأسَ القنا وقُوَّةَ المُهنَّد
فكان لابد لنا نُرجى القتالَ للغد

أنطونيو : كليوباترَا دعينا من تجنِّيكِ كليوباترا
أتبكين على الصبر وقوم حُرِموا الصبرا ؟
وبى من صبركِ الواهى جِراحُ الأمس لم تَبرا
لقد مَنّيتُ أسطولى لدى أسطولكِ النصرا
حَليف كنت أرجو أن سأشتدُّ به أَزْرا
فَعبَّا تحت أعلامـ ـكِ حتى زَحما البحرا
وقد كانا الجناحيْن وقد كنتُ أنا النَّسرا
وأجرَى الفُلْكَ أكتافيو فأجريتُ كما أجرى
صَففْناها وأَرسلْنا بها تقتحِمُ الجمرا

كلانا مارَس الحربَ وعانى الكَرَّ والفَرّا
فلما آذنتْنا الحر بُ بالمعركة الكبرى
تَسلَّلتِ بأسطول ك من غمرتِها الحَرّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفًا وقال الناسُ بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا : أنطونيوسُ مَلكي أنطونيوسُ سيّدى
ليس العُبوسُ سُنَّةً لوجهك الطَّلْق النّدى
ولستَ من يغضبُ فى ليل الشّراب والدَّد
ولستَ للكأس على شاربها بالمُفسِد
قلبُك كنزُ الحب والر حمةِ والتودُّد
وكم حَقَدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقِد
ألستَ بالأمس وأمـ ـس لفتة لم تبعُد
وَهبتَ لى جريرتى والصفحُ نصفُ السُّؤدد
فاطوِ معى حوادثَ الـ أمس ولا تُجَدِّد
وامضِ معى فى لَذّةِ الـ يوم ودَعْ هَمَّ الغد

أنطونيو : كلوباترا بحِبِّك من التأنيب خَلِّينا
لقد سُقتُ وقُوّادى إليك النصر فاجزينا

مُرِى بالكاسِ والطاسِ ... وبالندمانِ يَسقينا
وبالقَصف وبالعزفِ ... وحُذّاقِ المُغنّينا
وما طُيّب ألواناً ... وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلْوِيّاً ... كما كنتِ تقولينا
وأوحيه إلى شادي ... ك يُلقِيه فيُشجينا
غدًا نستأنفُ الحربَ ... ونَطويها ميادينا

انشو : ونَغشاها مَخاميرَ ... ونلقاها مجانينا

كليوباترا : مُرْ بما شئتَ قيصرُ ... وأْشِرْ كيف تأمُرُ
لكَ قصرى وما حوى الـ ... ـقصرُ كُلٌّ مُسخَّر
ليس شيءٌ وإن غلا ... عن حبيبٍ يُؤخَّر
لتكونَنّ ليلةً ... آخرَ الدهرِ تُذكَر
لا نُبالى إذا صفتْ ... بعدها ما يُكدِّر
تحلُمُ الحُلْمَ لستَ تد ... رى بماذا يُفسَّر

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البِدارَ البِدارَ يا وُصفائى ... ووصيفاتىَ البِدارَ البِدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النا ... هى على القصر فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمةً فاصنعوها ... واسقوها كما اشتهى واختارا

أَطلِعوا هـذه الشموعَ شُموسًا تَـذَرُ الليـلَ بالعَشِيِّ نهـارا
وأعِدّوا الخوانَ قد حُمِّل الأل ـوانَ شَـتّى وحُمِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُدام شَمْل النَّـدامَى وأديروا الكؤوسَ والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبِسـاطًا يتبـارى خلاعـةً ووَقارا
مصرُ إِنْ أَوْلمتْ سَمَتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسـيروا عـلى ولائم روما سَرَفًا فى الفُسـوق واسْتهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـد تجعـلُ الثِّمـارَ نَداما ها وأُسْـد العَرينـةِ السُّمّارا

قائد رومانى [لزميله غاضبا] :

أتسمعُ ما تقـول عَدوُّ روما؟ قـد اجترأَتْ على روما البَغِيُّ
أَتمحـت لـوائهـا وبجانبيهْـا يخوضُ الحربَ مِن روما كَمِيُّ؟

الآخـــر :

غَـدًا تَلقى وإنّ غـدًا قريبٌ عقـابًا فى البـلاد له دَوِيّ

الأوّل [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أميرىَ أَنطونيو أَفى الحق أَننا نَبيتُ سُـكارَى والعدو مُبيِّتُ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إِنه ليـلٌ له ما وراءَه غرامُك حىٌّ فيه والمجدُ ميِّت

« سـتار »

الفصـــل الثـانى

«فى حجـرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيـلانة»
«وشرميون ، وأنطنيوس ، وأوروس ، وبضعة من القواد الرومان ، وأولمبوس»
«طبيب الملكة ، وأنشو مضحكها ، وعانميز ساقيها ، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو : قيـامًا نشرب الخمـرا ... عـلى حُبّ كلـوباترا
كليوباترا : على حُبـك أنطـونيو ... على الجيش على مصرا
قائد رومانى : على روما
كليوباترا : دعـــوا روما ... ولا تُجروا لهـا ذِكْرا
فمـا أنطـونيو منهـا ... وإن كان ابنَها البِكْرا
ولكنْ تحت أعلامى ... يَقـودُ الـبرَّ والبحرا
القـائد : أحـقٌّ مارك أنطونيو ... س مِن رومِيَّةٍ تَـبرا ؟

[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]

أنطونيو : أجلْ أَتبـعُ مـولاتى ... ولا أعصى لهـا أمرا
كليوباترا : على حُبـكَ أنطـونيو
أنطونيو : ... ثلاثًا أربعًـا عَشْرًا
أنشـو : وإن شئتَ فعشرينَ ... الى ما فوقهـا سُكْرا
وإن شئت من الدنيا ... وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همسا] :

دَعوا أنطونيو إنى أرى السُّكْرَ به أزرَى

لقد كان الفتى الفَطِنَ فصار الحَدَثَ الغِرّا

قائد آخر [همسا] :

سَنلبثُ ساعةً نحتالُ حتى إذا سُلَّتْ عُقولهُم انسلَلْنا

فما المُتَدَلِّه السِّكِّيرُ أهلا لِتنصُرَه السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :

أَياسُ المُغَنّى وجَوْقَةُ العُزّافِ

وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا : أهلًا بوفدِ الآلهَهْ أهلِ الفنونِ النابِهَهْ

الحاجب : الشيخُ زَيْنون

رُبّانُ أنطونْياد [يدخلان]

انطونيو : ماذا عن الأسطول منْ ـكَ يا أخِيلُ نَعلَمُ ؟

هل خَمَدتْ فتنَتُه أو لم تَزَلْ تَضَرَّمُ ؟

أخيل : مَولايَ إن البحرَ يُخْـ ـفى سِرَّه ويكْتُمُ

وما نــواه في غــد مشْـلُ غـــد مُستَبْهِم
فــلا أقـــولُ مُقْــدِمٌ ولا أقـولُ مُحجِــم
ولا أقــولُ يَنــبرِى للحـرب أو يَسـتَسلم

كليوباترا: أخيلُ، دَعْنا من غدٍ إن غــدًا تَوَهُّــم
أخيلُ، ما العيشُ سوى ساعةِ صــفوٍ تُغـنم
فــلا تَكنْ كداخــلٍ على النَدامَى يلطــم
أتيتَهـــم مُنـــادمًا لم تأتِهــم ليَنـــدموا
اليــومَ شُربٌ

زيــون: وغـــدًا حـــربٌ

عانميـر: كلامٌ مُحكَمٌ!

الحاجب: بـــولا الشــاعرْ حَـــبْرا الســاحرْ

كليوباترا [ضاحكة]:
حَبْرا، أعنـدكَ سِحــرٌ يَشُلُّ طاغوتَ روما؟
ويَجعَلُ الناسَ فيهــا حِجــارةً ورُسـوما؟

[القوّاد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو: سيدتى لاتجرحى فؤادى ولاتنالى بالأذى أجنادى
وقلّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانيٌّ ... ألم تقـلْ إنك لى جُنديّ؟
أنطونيو : بلى، وددت أنى مِصريٌّ ... وأنى تابعُـك الـوفيٌّ

* ما فى سوى رضاك لى مُضِيٌّ *

أنشـو : تـلك واللهِ قضـيـهْ ... أصـبح الراعى رَعيّـهْ
حَـكم الحبُّ عـلى قيـ ... ـصـرَ والحُـب بليّـهْ
صـار كالشعب وساوَى ... همَـجَ الإسكندريهْ !

أنطونيو : حبرا، تكلّمْ ألا عجيبهْ؟ ... من سِحر منْف أو سِحر طِيبهْ
حـبرا : إلهَ الحـرب سامحنى فإنى ... غُلبتُ على أبالستى الغِضابِ
همُ لا يَجلِسون على غِناء ... ولا يتحدّثون على شراب!
كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا ... وقيصرُ لا يردُّ بلا جواب
وانت الكاهنُ العرافُ فانظر ... أغيرُ السحر شيءٌ فى الجراب
حـبرا : إذا ما شئتِ مولاتى فإنى ... أطالع فى الكُفوف وفى الكتاب
كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حـبرا ... وانظُـرِ الكفّيْن واقـرا
أنطونيو : تعـالَ حـبرا وقلّـبْ ... يـدىَّ يُمنَى لِيُسرى
لعـل أسرارَ كفى ... كواشِـفٌ لك سِـرا

[يتقدّم حبرا و يمعن فى كف أنطونيوس]



ألا ترى لى بقاء؟ ألا ترى لى عمرا؟

(صفحة ٤٣)

ألا تَرى لى بقاء؟ ألا تَرى لىَ عُمرا؟

حبرا : يا عَجَبَ الفال! مولا ى أعجبُ الناس أمرا

حياتُه بيديْه والناسُ يَحيَوْن قَسْرا

إن شئتَ عشتَ نهارا أو شئتَ عُمِّرْتَ دهرا

[قائد رومانى إلى زملائه همسا] :

لو كنتُ منه قريبًا لقلتُ فى أذْن حبرا

حياتُه فى يَديْه أم فى يَدىْ كليوباترا!

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفّى وبيِّن ما الذى تُخفى

[يتقدّم حبرا إليها ويمسك يدها بعناية وشغف]

حبرا : يا لكِ كَفًّا كنقِىِّ العاجِ ناعمةٍ كَخَملِ الدّيباجِ

لامِسُها من الجحيم ناجِى!

[ضحك]

تفدى الأكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ ترِفُّ لِينا

كما أظَلّ الشّفقُ النِّسرِينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمِعتِ حبرا مَلِكَتِى كيف ابتكرْ كُلِّف أن يَصنعَ سِحرا فشَعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا: لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيهِ
وما سرّك أنطونيو سُروري كلُّه فيه
فما تأمرُ فى حبرا بأىِّ البِرِ أجزيه؟

حبرا [لأنطونيو]:

جائزتى يا سيّدى تقبيل هذه اليدِ!

أنطونيو [ضاحكا]:

قَبِّلْ ولا تَرَدَّدِ!

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام]

حبرا: عَجَبٌ عينىَ لا تَقْوَى على هذا الضياء
هذه كفُّ إلهٍ جاء فى زِىِّ النساء

كليوباترا: خَلِّنى مِن زُخْرُف المدح ومِن زورِ الثناء
ما وراءَ اليد يا عرّافُ من غَيْب القضاء؟
أحضيضٌ يومِىَ الآخِرُ – قل لى – أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلَى باهتمام العظماء

حبرا: مَلْكتى يومُكِ فى الأيّام منشور اللواء
نابهُ الصبح كيوم الشمس عُلْوِىُّ المَساء

خَطَـر العِـــز عليـه ومشى فيـه الإباء
ثم يتـــلوه بقـاء لـم يُطـاولْه بقـاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قدأجدَى فمـاذا قلتَ يا فار ؟

زينون : إلهـــى وملاكى كُفّى المُهـرِّجَ عـنى
قـد نال منى ولـولا ناديك ما نال مـنّى

أنشـو : سيدتى عبدُكِ أنشو قـد صدقْ
الفـارُ فى مكتَبةِ القصـر نطـق
يقـول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !
هَمِّىَ فى الجِـلد وهمّـه الـورق
يَسـطو على آثار كلِّ من سـبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثـالَهْ زادوا على زينونَ فى الجُرأةْ
يا وَيْحَ للشيخ على فضـله أصـبح فى مَجلسهم هُزأةْ

أنشـو : هَبـوه فى الدرس بحـرًا هبـوه فى العـلم أُمّـه
لا يَخـلُقُ العـلمُ نفسًـا ولا يُنبِّـه هِمّـه

كم عالم فى يد الجا هلين ملقى الأزمه

كليوباترا : أقلّ المزح يا أنشو وأرسله بمقدار
فلولا الجهل ما رحت تقيس الليث بالفار

زينون : يا سماء احفظى و يا أرض صونى
أظهرت عطفها على زينون !

كليوباترا : يا غانميز هات النبيذ
هات اسقنى واسق الحبيب
واسق الملا

بولا الشاعر : بنت الدنان أم الزمان
خبأها فى قبوه
ساق منا
لون الفرح حنا القدح
سر السرور صفو الحياه
قوت المنى

كليوباترا : قيصر ، ذى سلافة الفيوم
تنمى إلى عقائل الكروم

مَخبوءة من عهـد مصرائيم
قـد عُمِّرت كعُمْر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القوّاد الرومان [يدمدمون و يتهامسون] :

قائـد : قـولوا يا رومانيّونا تحيا روما
آخـر : تحيـا
ثالث : تحيـا

أنشو [ضاحكا] :

تحيـا الخمـر يحيـا السُّكْرُ

القوّاد : تحيـا روما

جماعة من المصريين : تحيـا مصـرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسُّ بلـغ السُّكْرُ مَـداهْ
غَنِّنى شـعرَ مَلاكى . غنـنى شـعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيـو وأنطونيـو أنا ما لرُوحينا عن الحُب غنَى

غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

* * *

رَجَّعتْ عن شَجوِنا الرِّيحُ الحَنونْ وبعينينا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبَعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونِ فى حَواشى الليل بَرقًا وسَنَى

* * *

خَبِّرى يا كأسُ واشهدْ يا وتَرْ وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ يا سحرْ
هل جَنينْا من رُبا الأُنس السَّمرْ ورشفنا من دَواليها المُنَى

* * *

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ هو من سَرحتها سِرُّ النَّواهْ
وعلى صحرائها مَرَّتْ يداه فجرتْ ماءً وظلًّا وجَنَى

* * *

نحن شعرٌ وأغانٍ غدَا بهوانا راكبُ البيد حدَا
وبنا المَلّاحُ فى اليمّ شدا وبكَى الطيرُ وغنَّى مَوْهِنا

* * *

مَن يكنْ فى الحب ضَحَّى بالكَرَى أو بمسفوح من الدمع جرَى
نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى ولقينا الموْتَ فيه هيِّنا

* * *

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المُؤْثر وذهبنا مَثَلًا فى الأعصُر

هو أعطى الحبَّ تاجيْ قيصر		لم لا أعطى الهوى تاجيْ منا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ
آخر : يحيا الشعرُ
ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامسا] :

هلاّ نظرتَ الى الأميرة؟ إنها		سَكْرَى تعثَّرُ فى خليع عِذارها
آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على		آثارها وانجرَّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وأولمبوس] :

وانظرْ الى أوروسَ فى تَرَدّدِهْ		يأبى الهُتافَ معنا لمَولدِهْ

أولمبوس [ساخرا] :

أوروسُ مِلءُ يومه مِلءُ غده		فتى تَضِجُّ الحروبُ من مُهنَّده
ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده		قد راعنى فناؤه فى سيده
بنفسه وقومه ومَولده		يَغلو غُلوَّ الكاذب فى توَدّده

يُقيِّدُ الكلب وراء مَرصَده فيحرسُ الدارَ على مُقيِّده

أوروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة فحَذارِ ثم حَذارِ من تَكرارها

لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة لأميرة الوادى السعيد ودارها

انتزعتُ من أقصى لهاتك مُضْغَةً كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أوروسُ !

أوروس :

أولمبوسُ صَهْ برِحَ الخفا ورأيتَ نفسَك فى مَفاضحِ عارها

ماذا خبأْتَ من السُّموم لملكةٍ غَفَلَتْ عن الأفعى وأُوم جِوارها ؟

إلّا تكنْ علِمتْ فإنك عندنا جاسوسُ اكتافيو على أسرارها

مازِلتَ منذ وَفدتَ تُطلِعُه على أخبـار قيصر أو على أخبارها

إنا رجالَ الحرب ليس يَفوتُنا لَحْظُ العيون ولا خَفِيُّ حِوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس إليه] :

أقْصِر أخى إن الجماعةَ عربدت فإذا لَجَجتَ لَفَتَّ من أنظارها

إسلَمْ بنفسك فى الظلام ولا تُثِرْ ربَّما أخاف عليك غِبَّ مَثارها



تلك الدعابة ياطبيب ثقيلة فحذار ثم حذار من تكرارها

(صفحة ٥٠)

إنى لأخشى الكأس أن تجرى دمًا فتُصيبَ شيئًا من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لمصه وهو يسل الى الخارج] :

أوروسُ ! أنطونيو ! حسابُكما غدًا روما الأبيَّة لم تَنَمْ عن ثارها

[يخـرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيلانـ ـةُ فى ليلتنا حِصّـهْ ؟

ألا تَجَمّـعُ بين الكا س والنغْمة والرقصه ؟

فهذى فُرصةُ الأُنس وقد لا تَرجع الفُرصه

هيـلانة : الراقصـاتُ يقَمْنا الراقصـاتُ يَثبنـا

ولا يَدَعْنَ افتنانا ولا يُقصِّـرْنَ فنّـا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [ناديا] :

مرحى مرحى يحيا الفنُّ

صـوت : يحيا الـرقصُ

آخـــر : يحيا الحسـنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أوفوقَ ذاك وآذنَنا بالمُضىِّ الدُّجى

ودونَ الخيام سُرَى ساعةٍ … وعند الصباح تَدورُ الرحى
فهل تأذَنين لنا يا مَلاكُ … فلا بد من سِنةٍ من كرى
ولستُ أقولُ مَلاكى الوداع … ولكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانَك قيصرُ لا تَذهَبنّ … ولا تبرَحِ القصرَ أهلِكْ أسَى

أنطونيو :

ذَرينى أُعبِّئْ للقتال كتائبى … فلى فى غدٍ شأنان فى البر والبحر
ذرينى اهيِّئْ للأحاديث فى غدٍ … فإن غداً يومٌ سيبقى على الدهر
ذرينى أَزِدْ تاجيك غارَ وقائعى … وأقرِنْ بشعبانىْ جلالها نَسرى
ولستُ أخافُ الدارِعينَ وإنما … أخافُ بَجَاءاتِ الخيانة والغدر
وليس كَمِينَ الحرب ما أنا هائبٌ … ولكن كَمِينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[الأحيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مَكيدةٍ … تُدبِّرُ لى خلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمضِ إلى الهيجاء أنـ … ـطونيو كما يَمضى الأسد
إن الأسود فى اللِّبَد … دونك فى هذا الزَّرَد

إمض إلى المجـد ولا يُقعِدْك شُغلٌ فى البلد

المجدُ لا يَسألُ عن صاحبـةٍ ولا ولَـد

أنت لـروما فى غـدٍ وقيْصرونُ بعـد غـد

والشرقُ سلطانى الذى إكليلُه لى انعَقَـد

ياليْثُ سِرْ يانَسْرُ طِرْ عُدْ ظافرًا أو لا تَعُـد

« ســتار »

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ، والقسم »
« الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس »
« وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقائق وقوارير وهنا وهناك »
« صرر وصناديق يشف بعضها عما فيه من أفاع وحيات — باب »
« خلفى يؤدّى الى المعبد . ونافذة جانبية تطل على الفضاء »

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ　　وَلوعٌ بأفاعيه
ومشغوفٌ بثعبانٍ　　من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيّاتٌ　　من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم　　كما ذقتُ فَنَوْا فيه
ألا يارُب خدّاعٍ　　من الناس تُلاقيه
يَعيبُ السمَّ فى الأفعى　　وكلُّ السم فى فيه!

[يخرج من الباب الخلفى]

*
* *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس : أوروس إنى جَهِدتُ مَشيا　　ومسَّنى الضُرُّ والكَلالُ

فهلْ بنا نَستَرِحْ قليلا من قبلِ أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ، ماذا دهانى؟ حتى نَسِيتُ مكانى
أتيْتُ ما هَدّ مجدى وحَطَّ رفعةَ شانى
جللتُ نفسى بعار يبقى بقاء الزمان
لما حَمَلتُ جوادى على الفِرار ازدرانى
وضجَّ مِنى سيفى وصجّ منى سِنانى
ووَدّتِ الأرضُ تحتى لو طُهّرتْ من عِيانى
أنا الذى كان أمضَى من الحديد جنانى
الشرقُ يَدرى نِزالى والغربُ يَدرى طِعانى
كانَ الملوكُ عبيدى فصرتُ عبدَ الحسان
ولستُ أوّلَ حُرٍّ إستعبدتْه الغوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها وأفضى الى القَيْدِ الأسيرُ المُقيَّد
ولكن شقُّ الحرب والمُصطلى بها
إذا انقضّتِ الحربُ الطريدُ المُشرّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ
عزيزٌ ولم يَنزِلْ على القيْد سيّد

أوروس :

وقارَكَ قيصرُ لا تَجزعنَّ وخلِّ المقاديرَ تَجري المدَى
تَلقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجنان كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا
فما أنتَ أوّلُ نَجمٍ أضاء ولا أنت آخرُ نجمٍ خبا
وقد تنزِلُ الشمسُ بعد الصعود وتَسقمُ بعد اعتدال الضُّحَى
ويارُبَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ على هامةٍ قد علاها البِلى
أمالك أنطونيو أُسْوَةَ بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟
رأيتك والحربُ تَبْلو الكُماةَ فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغَى
وقد كان سَيفُكَ غُولَ السيوف وكانت قَناتُكَ غولَ القنا
وكنتَ إذا الموتُ أفضَى إليك تحدّيْتَه فانثنى القَهقَرى
وكان جُنودُكَ شرَّ الجنود عليك وخيرُهمُ للعِدى
فخانت أساطيلُ أمّلتَها وجيشٌ عَقدْتَ عليه الرجا
وخُلِّفتَ في عَسكرٍ كالنِّعاج كثيرِ الثُّغاءِ قليلِ الغَنا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائنٍ فرّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكنْ فى الوغى بالجبان ولا خُنتُ أوروسُ عهدَ الهوى؟

وتشهدُ أنىَ أنطونيوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى؟

فإن عِشتُ عِشتُ نقِىَّ الجبين وإن مِتُّ مِتُّ كريم الثنا

[يرى أنطونيو شبحا فيسأل أوروس مبهوتا]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس : مولاىَ

أنطونيو : تأمّلْ مَن ترى؟

أوروس : هذا أولِمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين؟ ومن أين أتى؟

أوروس : ها هو سارٍ نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس : تحيةً قيصرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لاغير بل قُل الشَّريد المُقتَفى

لا تخدعونى قادرًا وعاجزًا كفى غرورًا بالوِلايات كفى

أولمبوس : مولاى

أنطونيو : لستُ اليومَ مَولَى أحدٍ أكتافيو السّيدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلوباترا أولمبوسُ نبَا؟
صرِّحَ أينْ ، قُل عدرتْ ، قل جددّتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى
قدصَنعتْ بى عندحاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بىَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى! أعْفِنى

أنطونيو : تكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك روْعَةَ الأسى

أولمبوس :

مولاى مهلًا فى الظنون واتّئِدْ إن من الظن اتهاماً وأذى
أنت على مالكَ من مُروءةٍ رميْتَ بالغدر أحب مَن وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلبترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

ياللسماءِ! انتحرتْ! أَين؟أَينْ ولمْ؟ وكيف كان ذاك؟ ومتى ؟

أولمبوس :

مَررْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أَجدْ له نَظْما ولا حُسنا يُرى

بَدا لعينيَّ خَلاءً موحِشا غيرَ عويلٍ هاهنا وهاهنا

أنطونيو : إنتحـرتْ ! يا لَلْخـبرْ! ويا لِقسـوة القـدر !

إن الأمـورَ انتقلتْ من خَطـرٍ إلى خَطر

ما غَـدرتْ وإنمـا أنا الذى بها غَـدر

وانجلتا من قولهـم انتحـرتْ وما انتحـر !

إذهب أولمبوسُ ودعـ ـنى والهمومَ والكدر

ما بجِـراحات القـلو ب للأطبّـاء بَصَـر

[يذهب أولمبوس]

[لـروما] :

روما حنانَك واغفرى لفَتاكِ أوّاه منك وآهِ ما أقسـاكِ !

روما سلامٌ من طَريدٍ شارد فى الأرض وَطّنَ نفسَه لهلاك

اليومَ يَلْقى الموتَ لم يهتِفْ به ناعٍ ولا ضجّتْ عليـه بواكى

إن الذى أعطاكِ سُلطانَ الثرى لم تنعَـمى لـرُفاته بـثراك

إن الذى بالأمس زنت جَبينَه بالغارِ عقَّك جُهدَه وعصاك

يا رُبَّ تاجٍ فى جبينك زاهرٍ عطَّلتُ منه مفارقَ الأملاك

الأمّهـاتُ قلوبُهنّ رقيقـةٌ ما بالُ قلبِـك لم يَلِنْ لفتاك !

أَعَرَضْتِ غَضْبي في الحياة فرحمةً — لا تحرميني في المماتِ رضاك
إن كان موتي كلَّ ما تبغينه — فهناك! ها أنذا أموتُ، هناك!
يا أمُّ، عذرُك في اتّهام بنوّتي — بادٍ وعذري في العقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنة من سحره — ما حَلَّ في قلبي هوًى لسواك
صفحًا كلو باترا فربّتَ زلّةٍ — قد كنت تغتفرين حين أراك
لما لقيتُك في الجمال وعزّه — قهرتْ قُوَى الظافراتِ قُواك
فنسيتُ في ناديك ذِكْرَ وقائعي — وسلوتُ أيامي بيوم لقاك
سجدتْ لأعلامي الصوارمُ والقنا — وأبى مُهنّدُ لحظك الفتّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادرًا — ما لي ضعفتُ فقادني جفناك؟
أخرجتِ أمري واختياري من يدي — وتركتِني نفسًا بغير ملاك
خلتُ السلامةَ في نواك فذقتُها — فإذا الكوارثُ كلهنّ نواك
عاديتُ قومي في هواك وأضرمتْ — روما عليَّ الحربَ من جرّاك
وشرّدتُ في شرق البلاد وجدّفي — طلبي عِداي بغربها وعِداك
أغدو على سيف العدوّ وناره — وأروح بين مكامنٍ وشباك
وتلمّستْ نفسي السيوفُ ورامني — في البرّ والبحر الكميُّ الشاكي
كانت حياتي للرجال أليّةً — واليومَ هُنْتُ فأقسموا بهلاكي

ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذممتُ عهدكِ واتهمتُ وفاكِ
حتى إذا حُـمَّ القضاءُ وراعني عُطْلُ المقاصر من بهاء حُلاكِ
ضَحَّيتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ وبَذلتُ أيامي وقلتُ فِـداكِ

* * *

أمانَّا إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ بهذا الحُطام المُستباح المُبعثَرِ ؟
لقـد ذَلَّ من بعـد امتناعٍ كأنه بقيةُ نَصْـلٍ أو رُفاتُ غَضَنفَرِ
صَـدعتَ أكاليـلى وحَطَّمت صارمى وجرَّدتَنى من أرجـوانى المُظَفَّرِ
ولم تألُنى هدْماً وكـنتَ بَنَيْتَنى بنـاءَ الصَّـناع القـادر المتُجبِّرِ
ملأْتَ سبيلى بالهوى وصروفه ومن يَمشِ فى أرض الهوى يتعثَّرِ
تنكَّرتَ حتى اخترتَ لى معْولَ الهوى فليتَـكَ لم تَغضبْ ولم تَتَخـيرِ
أُروسُ غلامى ، إن فى النفس حاجةً

أوروس : وعندىَ أقصى طاعة العبد فأْمُرِ

أنطونيو :
أُوروسُ أرى الدنيا بعينىَ أظلمتْ وكانت قديمـاً كالصباح المنوَّرِ
وضاقت بىَ الأرضُ الفضاء فكلُّها سبيلُ طريدٍ ضائـع الدَّم مُهدَرِ
غَويتُ وأَوْفَى بى على الحُفرة الهوى نُخفتُ ، ومن يركبْ شَفا الجُرْف يُذْعرِ
قُشَعريرةُ الخوف اعترَتْنى ولم تكُنْ إذا ما اقشعرتْ تحتىَ الأرضُ تعترى

مُلِئتُ من الأحداث رُعباً فضَمَّنى ... إليك وقَرَّبْ من إزارك مئزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدين كمُنقذ ... لمثلِىَ من غَرْقَى الحياة مسخَّر
دعانى ، ولو أنى على النفس مُشفِق ... مَدَدتُ إليه الكَفَّ لم أتأخَّر
أروسُ ، أرى الماضى يُطيف خيالُه ... وتَعرِضُ لى أحلامُهُ فى التذكُّر
ذكرتُ بروما أرْبُعِى وملاعبى ... وأين ضفافُ النيل من شطوتيبَر ؟
وأيامَ يَدْعونى الهوى فأُجيبُه ... وينفخُ فى البُوق المنادى فأنبرى
فتَنْتُ الغوانى بُرْهةً وفتَنَّنى ... ولكننى عن سُؤدَدٍ لم أقصر
فهِمَّةُ قلبى فى شرابٍ وصَبْوةٍ ... وهِمَّةُ نفسى فى عَلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقفنا على كلّ غَمْرةٍ ... وكلّ مجالٍ ثائرِ النَّقْع أكدَر
وفى مِهرجان الفاتحين وعُرسهم ... وتحت لِواء أو على عُودِ مِنبر
فمالتْ بنا الدنيا فصِرْنا بِموقِفٍ ... شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعِر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا ... إلى فَلَكٍ نَحْسِ الجهاتِ مُسعَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى ... وصبرى على العيْش الذليل المكدَّر !

أروس :

أجلْ قيصرُ اعتضْنا من العزِّ ذِلَّةً ... ومن حِلْيةِ الأعلام عُطْلَ التنكُّر
فهُنَّا كأنقاض الحصون على الثرى ... وضعنا عليه كالقنا المُتكسِّر

نَهِيمُ كأبناء السبيل وطالما أخَفْنَا سبيلَ العاهِلِ المُتَكبِّرِ
وما منزِلُ الأبطال إلا رحى الوَغى إذا هي دارتْ أو رِواقُ المُعسكَرِ

أنطونيو : فماذا ترى أوروس ؟

أروس : رأيُك أوّلُ وعندك تُرجى نظْرة الصدق فانظرِ
لقد عِشتُ ظِلّاً لا أرى غيرَ ماترى ولا خيرَ في الرأى التّبِيع المُسيَّرِ

أنطونيو :

أروس، أنا الأعمى وأنت لى العصا فخُذْ بزِمام العاجز المتحيِّرِ

أروس :

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى على النفس مَحتوم القضاء المُقدَّرِ

أنطونيو :

وماذا يقولُ العاجِزون إذا ابتُلُوا ؟

أروس : يقولون حُكْمُ اللهِ يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :

أروسُ، يقومُ العاثرون وقلّما يُقالُ عِثارُ الكوكبِ المُتَغوِّرِ
أروسُ، ألم تفهمْ ؟ هو الذلُّ فاشفِنى بِضَرْبةِ سَيْفٍ أو بِطَعنةِ خَنجَرِ

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز بسيفي وأثوابي ودرعي ومِغفَري

أوروس :

مَعاذَ خلالِ البرِّ مولاي ! أَعْفِني فليس يدي تَقْوَى ولا السيفُ يجترى
وأنت الذي لو بِيعَ بالروح وُدُّه ومالي سوى روحي تقدَّمتُ أشترى
لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ظَلَمْتَ فلم تُنصِفْ وَلائى وتَقْدُر
أَتَجعلُ في الميزان حُبِّي وطاعتى وشَتَّى عُروضٍ من ثيابٍ وجَوهرٍ ؟
لقد جادلى بالسيفِ والدِّرعِ قيصر

[يطعن نفسه بخنجره] :

وجُدتُ بأيام الحياة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ، عفوًا قد ذهبتَ ضحيةً وجَنَى عليك تَرَدّى المقوتُ
فعلمتَ مِني كيف يَجبُنُ قيصرٌ وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخرّ على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لكنْ بناتِ التلال وجِنَّ الخرائب منْ صَالجُحَر
تبدَّلَ من حولكنّ المكانُ وأين القِفارُ وأينَ الحُجَر



فعلمت مني كيف يجبن قيصر   وعلمت منك العبد كيف يموت

(صفحة ٦٥)

يــدُ العــلم وهى حــديديةٌ حَوَتكُنّ من جَنبَات الحُفَر
وجاءت بكُنّ إلى حُجْـرتى أُسارَى القوارير رَهنَ الضُّرَر
أرابنىَ النــاس فى أمركنّ وصــرتُ حديثَهمُ والسَّــمَر
وقيــل أنو بيسُ حاوٍ تسيلُ إليــه الأفاعى إذا ما صَــفَر
وما فِتنتى بجُلودٍ لكُنّ مُرَقّشَةٍ كإهاب النمِــر
ولا بهيا كلّ مثـلِ العِصِيّ من اللحم لا من فروع الشجر
ولا برءوس كَدِقِّ الحصــا ولا بعيونٍ كوَقْدِ الشَّرَر
ولكن أزاولُ علم الســموم وعلمُ الســموم جليلُ الخَطر
لقد كان لى فى مُعــاناته تجاريبُ أنفقتُ فيها العُمُــر
إلى أن نجحتُ ، نعم قد نجحتُ وعاقبــة الصــابرين الظَّفَــر
فكم قد شفيتُ بطيء اللّديـ ـغ وأيقظتُ من نَزْعِهِ المحتَضَر
فقيــل إلهٌ أعاد الحيــاةَ إلى الميْت أوخِدْنُ جِنٍّ سَحَر
صَنعتُ من الســم ترياقَــه وقد يختفى النفعُ تحت الضرر
وأنتُنّ والنــاسُ قد تلتقون ففيكُنّ شرٌّ وفى النــاس شر

[تدخل حابى خاسة]

أنوبيس [مستمرًا] :

وتقتلن عُمىَ عيونَ السلاح ... وَيقتلُ قاتِلهُم عن بصر

لِسانُ ابنِ آدمَ أو نابُكُنّ ... كلا السائلين لعابُ القدر

حابى : سلامٌ أبتِ

أنوبيس : حابى ؟ ... سلامٌ لكَ يا حابى

حابى : أمشغولٌ أبى اليومَ ... بذات القَرْن والنابِ

وأنطونيوس مهزومٌ ... وأكتافيو على الباب

أنوبيس [باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى، تقهقر ناحيهْ ... تلك الحبيشةُ داهيهْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القواريرُ وذى الحِقاقُ ... غوثٌ الى مستنجدٍ يُساقُ

* لكل سُمٍّ عندها تِرياق *

أبتِ، من للرعيهْ ... من لأوطانى الشقيهْ ؟

خَلِّ حيَّاتِك فى الأسـ ... ـفاط واشعُرْ بالرزيّه

بعد حين تملأ الوا ... دى الأفاعى البشريّه

أبتِ نحن من اليو ... م عبيدُ القيصريه

أَدنِ أذْنيْك على قَدْ … سهما من أُذُنيَّهْ
واسمع البوقَ تَجِدْ مِن … أحرُف الرقِّ دَوِيّه

أنوبيس : حابِي ، تَقبّلْ هذه القِنِّينهْ … وَاقبِضْ عليها بيدٍ ضنينه
فإنها ذخيرةٌ ثمينهْ !

حابي [لنفسه] :

يا لَلسماءِ لأبي ! … تُراه يَسْتهزئُ بي ؟
ويحَ له ، عساه جُنَّ … أو لعله نبي
أَوحتْ له السماءُ علـ … ـم غيبِها المحجَّب
يَعلمُ من يُلدَغ من … رقطاءَ أو مِن عقرب
لأخْمِلَنّ حُقّه … مثلَ تميمةِ الصّبي
يا لكَ شيخًا طيِّبًا … يأتي بكل طيب !

[مخاطبا أنوبيس الكاهن] :

دِيسَ الحِمَى أبي فكيـ … ـف للحِمَى لم تغضَبِ ؟
دعِ الأفاعى واشتغِلْ … بالأُفعُوان الأجنبى
الوطنُ الملدوغ أوْ … لَى اليومَ بالمُطَبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فِتيان الحِمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أَدَرتُمُ وجوهَكم ساعةَ دارتِ الرحى
تركتم أنطونيو سَ وَحدَه يَلْقى العِدا
من أجلكم سلّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضرّكم لو الـ ـتففتُّمُ على اللِّوا ؟
أبعد أن حلّ على الـ ـنيل وواديه القضا
ولم يجِدْ من شِيبه ولا شبابِهِ فِدا
أتيتَ تدعوني كما تدعو العجائزُ السما
الرأْيُ ليس نافعًا إذا أَوانُهُ مضى

[يدخل جند من حرس الملكة]

الجندي : مولاي ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندي ؟

[تدخل كليوباتره في حاشيتها]

كليوباتره : تحيةً يا أبتِ

أنوبيس : سيدتي في حُجرتي

مُرِى بما شـــئتِ يكنْ — وإن تحــدَّى قُــدْرتى

كليو باترا :

أَبى، أعلمتَ أن الجيشَ ولَّى — وأن بوارجى أبتِ المُضيّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى — وذا حابى بــه أفضى إليّـا

كليو باترا :

وهل نَبّاكَ عن أنطونيوس — وكيف جرتْ هزيمتُه عَليّا
وما أدرى أأردوْه قتيـلا — صباحَ اليوم أوأخذوه حيّا؟
أبى ذهب الحليفُ فكُنْ حليفى — فقد أصبحت لا أجدُ الوليّا
أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعِى — لَبَاةُ النيـل ليس تخافُ شيّا

كليو باترا :

أبى لا العزلَ خِفتُ ولا المنايا — ولكن أن يَسيروا بى سَبِيّا
أيوطَأ بالمَناسِم تاجُ مصــرٍ — وثَمّتَ شعرةٌ فى مَفْرقيّا؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأتِ المقاديرُ أو فلْتــذَرْ — تعــالىْ كلوبترا ألقِ النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبى ، نَحِّها ، أَخْفِها ؟ أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرْ

فماذا تريدُ بإحراذهن وهل يقْتنِي عاقلٌ ما يضر ؟

أنوبيس :

أُتيتُ بهنّ لدرس السُّموم ولم أَخْلُ فى علمها من نظر

أداوى بها أو بترياقها مُحبَّ الحياة أو المنتحر

كليوباترا [كأنما تحدّث نفسها] :

محبِ الحياة أو المنتحِر!

كفى أيها الشيخُ ! بل هات زِدْ فما بىَ خوفٌ ولا بِى خَوَرْ

وإن تكُ بى خشيةٌ فى النساء فلى جُرْأةُ المَلِكات الكُبر

تكاتمْ فليست سمومُ الأراقـ ـم فى الخُبثِ دون سُموم البشر

فيارُبَّ صَفْوٍ سَقَيتُ الرجالَ فلما تَرَوَّوْا سقونى الكدر

أنوبيس :

قِصارٌ وهُنّ سهامُ المَنون وليس يَعيب السهامَ القِصَرْ

تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذى لَمستْ مَقتَلٌ ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر

إذا جَرحَتْ لم تَقُمْ عن دمٍ كذلك يجرحُ سهمُ القدر

وماتُها لا يُحِسُّ المنونَ كمَن مات فى النوم لا يُحتَضر

كليوباترا [مردّدة قوله فى صوت خافت] :

وماتُها لا يُحِسُّ المنون كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبى هل يُصانُ الجمال؟

أنوبيس : نعم لا يَحولُ ولا يَندثر

كليوباترا :

وهل يَطفَأُ اللون ؟

أنوبيس : لا بل يُضىءُ كما رفَّ بعد القِطاف الزَّهَر

كليوباترا :

وهل يُبطِلُ الموتُ سِحرَ الجُفون ويُبلِي الفُتورَ ويُفنِي الحَوَرْ

أنوبيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى إذا الجَفنُ ناء به فانكسر

كليوباترا :

أبى ، والشفاهُ؟

أنوبيس :

لـواق الذبـول كما احتُضِر الأُقْحُوانُ النَّضِر

وما الموت أقسى عليها فمًا ولا قُبْلَةً من عوادى الكِبَر

كليوباترا :

وما عَضَةُ النـاب ؟

أنوبيس :

وَخـــزٌ أخـفُّ وأهْونُ من وَخَزات الإبر

كليوباترا :

وما شَــبَحُ الموت ؟

أنوبيس :

ماذا أقـــولُ ؟

كليوباترا : تُمَثِّلُهُ لى كأنْ قد حَضَر

أنوبيس :

زعمتِ ابنتى الموتَ شخصاً يُحَسّ وعَظَّمتِ من خَطْبه ما صَغُر
وما هو إلَّا انطفاءُ الحياةِ وَعصْفُ الرَدَى بسراجِ العُمُرْ
وليس له صُــورةٌ فى العيون على قُبْــح صُورته فى الفِكَر
إذا جاء كان بَغيضَ الوجوه وإن جِيءَ كان حبيبَ الصُّوَر

كليوباترا :

إذن هــذه الرُّقْطُ فى ذمــتى فصُنْها وأحسِنْ عليها السهر

وأقسمْ لتَأتِ إلىّ بهن ولو أن دونى الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يميناً بإيزيسَ أَحملُهن إليك ولو فى سِلال الخُضَر

إذا بات فى خطر تاجُ مِصر سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أتجعل لى يا أبى آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التين أبعثُ حابى به وبالرُّقط بين غُصون الثمر

* * *

ابنتى ذلك محرا بى ادخليه للصلاه

واسكُبى الدمعَ عسى أن يَقبَلَ الدمعَ الإله

هو ذو المُلكِ الذى يبقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ

الجندى الثانى : روما العُظمى أبداً تنتصرْ

الجندى الثالث : ما ذاك؟ ما فوق الطريق؟ ما أرى ؟

ميلا رفيقىَّ معى لننظرا

الأول : هناك مقتولان ضَرّجا الـثرى

الثانى : نعـم أرى ثَمّ دما وخَنجـرا
وهيكلين من حيـاةٍ أقفـــرا

الثالث : جُبِتَارُ يا مُصرِّفَ الحروبِ بارِكْ لنا فى هذه الجيوبِ !
وابعثْ لنـا بالذهب المحبوبِ

الأول : يا عَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ ؟

الثانى : أنطونيو ! أَجلْ وذا أوروس !
وأحسَب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سـيِّـده
لهفى على أنطونيو فى مرقـدهْ

[يئن أنطونيو ثم يحرك رأسه و يتبين الجنود]

أنطونيو :
ويحـى أخىٌّ أنا جريحٌ ؟ ما ذا يُريدُ القضاءُ ما ذا
جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى مِتُّ قبل هـذا

جندى :
لا بل جنودُك لكن خانـوك حُبّاً لـروما

آخـر : وما تَسُـوك عليهـم تحت اللـواء زعـيما

ترمى بهم مَطالعَ الشمـ ـس أو تَـؤُمُّ النجوما

أنطونيو :

يا جنودى وصحابى ليس ذا وقتَ العتاب

اتركونى وعذابى

[يغمى عليه]

جندى :

لهفى عليه عاده الإغماء وأوشكتْ تنزِفُه الدماء

وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخر :

هَلُمَّا احملاه هَلُمَّا احملا وجيئا بمولا كما الهيكلا

وأمضى فأُبلغُ أكتافيوا الـ حديثَ أعرِّفُه المنزلا

[فى حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا :

أبى دخلتُ ونفسى حيْرَى الزِّمام حزينهْ

وقد تركتُ المُصلَّى وملءُ قلبى سكينه

إن الصَّلاةَ على شدّ ة الزمان معينه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا :

ما تسمعون أصيخوا شَرٌّ وهذا بريدُه

كانَ الضجيجُ بعيدًا والآن يـدنو بعيـدُه

حـابى :

أسمعتم ! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجُنـودٌ فى الطريقْ

هاهمُ قد دخلوا الدار به

أنو بيس : دارُنا الشاطئُ لا يأبَى الغريق

حـابى :

ها همُ قد حضروا

أنو بيس : يا مرحبًا أَعدُوًّا كان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليو باترا :

ويحَ عينى ماذا ترى؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأكفِّ خضيبا

أيهـا الجنـدُ ما بأيديكمُ اليـو م ؟

جنـدى : جريحٌ على الطـريق أصيبـا

كليو باترا :

أفتدرون مَن حَمَلْـتم ؟

جنـدى : حَمَلنـا هيكلا عَزَّ فى الرجال ضريبا

قد عرفناه خيرَ من هزَّ رُمحًا ونضا صارما ولاقى الحُـروبا

[تتأمل كليو باترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيو ! حبيبي أدركوني بطبيب
ماترون الأرض تروى من دم الليث الصبيب
أبتى ، أين قوى طبّـ ـك والسحر العجيب
هو فى إغماءة الجر ح فنبهه بطيب
هو ذا يفتح عينيـ ـه ويصغى لنحيبى

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه توالى وهذا جسمه لايزال غضًّا رطيبا
هو ذا قد تخالجت شفتاه وتهيا لسانه ليثوبا
أيها الملكة ارفقى بجريح بات تحت الرداء جرحا صبيبا
لاتناديه بالدموع مرارا ربما ضر جرحه أن يجيبا

أنطونيو :

كليترا ! عجب ! أنت هنا ! لم تموتى... هم إذن قد كذبون

كليوباترا :

سيدى روحى حياتى قيصرى أنت حى؟

أنطونيو :

بعد حين لا أكون



آه أنطونيو حبيبي . أدركوني بطبيب

(صفحة ٧٩)

كليوباترا :

من نَعانى كَذِبا ! من قالها لك !

أنطونيو :

أولبوسُ النـذلُ الخـؤون
مـرَّ فاستوقفتُـه أسألُه قال ماتتْ فتجرَّعتُ المَنونْ

* * *

كليوباترا زوّديني قُبـلةً من ثناياكِ العِذابِ الشَّمِاتْ
وأضيئي بسَناها مُقلةً يُسْدِلُ الموتُ عليها الظُّلُمات
سيقولُ النـاسُ عني في غد من أولي الرحمة أو أهل الشَّمات:
بَطـلٌ لم تَظفَرِ الحربُ به في الهوى تحت لِواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قـد تَداعى مِحْـوَرُ الأر ض وميزانُ الشعوبِ
مال كالشمس جمالاً وجـلالاً فى الغـروب
أيهـا المجـروحُ لـو تـد رى جُـروحى ونُـدوبى
أَيهـا الذاهبُ قـد آ ن عن الدنيا ذُهـوبى
أَيهـا الخـالِصُ وُدًّا ليس وُدّى بالمَشـوب
أَيهـا الصادقُ وعـدًا ليس وعدى بالكذوب

عن قـريب ينطوى القبـ ـرُ علينا عن قريب
كلِّلوه بالرياحيـ ـن وبالغار الرطيب
واهتفوا فى أُذنيْه بأنا شيد الحروب

* * *

واحبيباه، جاءه الموت فاستسْـ ـلم لا يستطيع إلاّ ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحلّتْ نكبة لم تفاجئ المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا معىَ السيدَ الجسورَ الوهوبا
شبّكوا ساعديْه من فوق صدر كان فى الرَّوع بالمنايا رحيبا
واعرضوا سيفَه على راحتيْه واركزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا الشأنكم جُندَ روما ودعونى وسيفَ روما السّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ إن دعا دارَه ونادى النّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويح لى قد طلبتُ عند طباع الـ ـناس ما عزّ عندهم مطلوبا
خلق الناسُ للقوىّ المزايا وتجنَّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا لب فانظرْ هل عظَّموا مغلوبا
شيَّعوا الشاةَ جيفةً بمُداهم واتّقوْا وهْو فى الرِّمام الذّيبا

أنوبيس :

الوقارَ الوقارَ يا لَبْــأَة النيـ ـل ولا تجعـلى الزّئيرَ النحيبا
وقِفى للخُطوب فى عِزّة المُلْـ ـك وفى كِبْره تُذِلّى الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى :

قيصــر أكتافيوسُ آتى يعـودُ أنطونيوسَ قيصــرْ

كليوباترا :

قيصر ! فــرّ الأســير منــه مَن فى حمى الموت ليس يُؤسر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

ســلامٌ مَلْكةَ الــوادى ســلامٌ كاهنَ المُــلْكِ
يقــولُ النــاسُ أنطــونيو هنــا لــم يَبتعِــدْ عنـك

كليوباترا :

نعــم لــم تفـــترقْ بعـــد وإن أمعـن فى تركى
وهـــذا الجســـد الفــانى جَـــلاءُ الرَّيب والشــك

أكتافيوس :

إذن قد قُضِيَ الأمرُ وصار الليثُ للهُلْك
كليوباترةُ لا تَخْشَيْ فلن آخذَه مِنك!

كليوباترا :

أبِي تَهزأ أم بالمَيْتِ أم بالموقفِ الضَّنك
إن استطعتَ على مالك من بَطش ومن فَتك
وما حَوْلك من خيل وما تحتك من فُلك
نخُذه من يد الموت ومن عاجزةٍ تبكي!

[يدنو جندى من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تهتِكنْ على سيد الهالكين القِناعْ
تُريد لتَكشِفَ عنه الغِطاءَ عسى تحته حيلةٌ أو خداع
عَبَثْتَ به وهو تحت الطِّيالِس مُلقىَ السلاح قليلَ الدفاع
ولم تحتشِمْ بُقَعًا من دم عليهنّ تَحسُدُ مصرَ البِقاع
رُوَيْدَك، ما الموتُ مُستبعَدٌ ولا هو مستغرَبٌ من شجاع
وإن التماوتَ فعلُ الثعالب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَـك سـيدتى إنـه فتى طاهرُ القلب حـرُّ الطباع
أراد ليحتـاطَ لى جُهـدَه ويُخلصَ فى خدمتى ما استطاع
تنحَّ أخا الجند ما أنت والميـ ـتَ! لا يَقرَبُ الشمسَ إلا الشُعاع!
أتأذَنُ سـيدتى أن أطيـ ـفَ بخِدنِ الصِّدام رفيقِ الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنا ظِلَّه ومن كان ظِلِّىَ تحت الشِّراع
وكنا نَشـيد لروما الفَخارَ ونَجْنِى لها الغارَ من كل قاع
ونأتى القِـلاعَ فنحتلها وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَركزُ فى السهل أرماحَ روما ونُطلِعُ أعلامَها فى اليَفاع؟
بإذنـك ؟

كليو باترا :

قيصـرُ لا إذنَ لى أينهى ويأمر من لا يطاع؟
تصرَّف بجُثمانه كيف شئـ ـتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّـةُ الليث إلا لـقًى إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع؟

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقـد حسَم الموتُ ما بيننـا وغَضَّ اللِّجاجَ وفَضَّ الـنزاع
فمِن حَـقِّ اليـومَ بل واجبٌ على أُقَدِّسَـــهُ أن يُضـاع
أُقَبِّـــلُ ما قَبَّـل الغـارُ منـ ـك وأهتفُ : أنطونيوسُ الوَداع

[ســـتار]

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، شرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام «مرْكُو» ولم أنَمْ — وتفــرَّدتُ بالألــمْ
ليت جُرْحى بجُرحــه — لَـقِىَ المــوتَ فالتـأم
قاتــلَ اللهُ ماضــياً — قتــل المُفــرَدَ العَــلَمَ
أنطوانُ انفُضِ الـكرى — ساعةً وانقُــلِ القَــدم
قُمْ كأمسِ اغنَمِ الهوى — واشربِ الراحَ بالنَّغــم
وتَخَــيَّرْ عــلى المُــنَى — وتمتَّــعْ من النِّعــم
واغمــرِ الأرضَ بالقنــا — وتَغَلَّبْ عــلى الأمــم
وقُــدِ الخيــلَ فى الــوِها — د ووثبــاً إلى القِمَــم
أيها العيــن أبصــرى — إنمــا كنتِ فى حُــلُمْ!

[ملتفتة الى شرميون] :

يا شرميــون بلغنا موْقِفاً حَرِجا — لا الرأىُ ينفعنا فيه ولا الباسُ
لم يَبقَ ثَقْبُ رجاء كنت آملُه — إلّا تعرّضَ حتى ســدَّه اليأسُ

[تلقى نظرة على الإسكندرية من الشرفة]

نجمي يُحدّثني بوشك أفوله إسكندريةُ، هل أقولُ وَداعا ؟
وَشّيْتُ بَرّك جدولًا وخميلةً وكسوْتُ بحرك عُدّةً وشراعا
وأنا اللّبَاةُ وقد ملأتُك غابةً وأنا المَهاةُ وقد ملأتُك قاعا
قد خفتُ من بعدى عليك ممالكا يُطاِقْن فيك الفاتحين سِباعا
يأتين زرعك بالرّياح عواصفًا ويجئن ضرعك بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها قد دُكّ ركنُ بنائها وتداعى

شرميون :

بإيزيسَ سيدتى بالوَلاء بطول التعاشر والمُصطحَبْ
على بابك من خدمة ومن صُحبةٍ تُشبهان النّسب
على أى وجه أدَرْتِ المصيرَ وقلّبتِ رأيكَ فى المُنقلب ؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب
وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمتِ؟ أبيني فما بيننا من حُجُب
ولى فى حياتك رأىٌ يُساقُ وليس علىّ إذا لم يُصب

كليوباترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العتيد يخافُ انتحارى ويخشى الهربْ
وليس الذى يشتهى لى الحياةَ ولكن له فى حياتى أرَب

له فى غد موكبُ الفاتحين إذا أقبلوا فى جلال الغَلَبْ
يجرُّون فى رومة الأرجوانَ وقد بَرَزَتْ فى الثياب القُشُب
وتزدانُ بالغار هاماتُهم إذا ارتفعت فى الخميس اللَّجِب
يُحاولُ قيصرُ منى المُحالَ ويذهب فى غير وجه الطلب
يُريدُ ليَعرِضَنى فى غد على شعب روما كأنى سَلَبْ
ويفضحُ مصر وسلطانَها وتاجَ العصور وعرشَ الحقَب
لقدساء تدبيرُ أكتافيوسَ ولم يَلْقَ من خُدعتى ما أحب !

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حِسٌّ قادم

هيلانة :

أجلْ دبيبُ حارس أو خادم

كليوباترا :

بل حارسٌ جافٍ من حَرَس القصر
مُعربِدُ الخطو من نشوة النصر
لا تسعُ الأرضُ رِجليهِ من كِبْر

شرميون :

مَلْكتى دعى هذه الفِكَرْ
جندُ رُومةٍ يَعبُدُ البِدَرْ
فى سبيلها يركَبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى؟

الحارس : رسالة من عبد
هل تأذنين؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلْكَةُ قد جا ء إلى القصر غلامْ
فى ثياب الحقل حُلْوُ الـ ـشكل ممشوق القوام
جادل الحُرَّاسَ فى حذ ق ورفق بالكلام
يَدَّعى أن أباه كان عبدًا للمَقام
ناله بستانُ تين من أياديك الجسام

فهْـو يهُـدى لك باكو رتَـه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَنـاه فى يمينـهْ
جاءَ فى الميقات يهْـدى لىَ باكورةَ تينـه

[للحارس]

ألا تَقْبَـلُ يا حـار س مـنى هـذه البَدْره ؟

الحارس : بشـكران وهيهـات على الشكرانِ لى قُـدْره

الملكة : والآن اوتُحْضِرُلى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا
إنى نسيت البَسطَ والمزاحا

الحارس : علىّ السـمع والطـاعه سآتيك بـه السـاعه

[يخرج الحارس]

الملكة : يا شرميونُ تعلّمى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى
إن التى حُرِستْ بأبطال الوغى باتت تُصانعُ سِفْلَةَ الحراس

[يدخل حابى فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى نعم وتلك نظرتُه وهـذه مشيَتُه وخَطرتُه
يا ليت شعرى ما تكون سَلّته ؟

حابى : تحيــةٌ للمَــلِكــهْ و نعمَــةٌ و بَرَكــهْ
ونفسُ عبــدها لهــا وكــلُّ ما قــد ملكه
ســيدتى جئت إلى بحــرك أُهــدى سمكه
أحمِــلُ تينـا ولــو اسـ ـتطعتُ حملت مملكه

حابى : ســيدتى

الملكة : أُدنُ فإنــه ابتعــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : ســيدتى

الملكة : حابى ، أنوبيسُ اجتَهدْ لنا وأنجز الغــداة ما وعدْ!
يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقِى مملكتى عارَ الأبد
جئتَ كما يأتى لوقتــه المَــدد
وَفَيْتَ لى حابى ولم تكنْ تَــفى ضعِ السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفــ
حتى ترى كيف يكونُ موقفى
[تلقى نظرة على السلال]
ما لى مُلئتُ من المنيّــة رهبــةً إنَ المنيــةَ فى رقاب النــاس
آسى الجراح جَزعتُ عند لقائه والنفسُ تجــزَعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بِساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلا شربُ هذى الكاس
يا خادمتىَّ بل ابنتىَّ تلطّفا فى البحث حتى تأتيا بأياس
فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أَجود عليه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا إنه بالقُرب منكِ
هو فى المقصورة الأخـ ـرى مع الباكين يبكى
فكرُه فيكِ ولا يجـ ـسُر أن يَسألَ عنكِ

الملكة :

يا وَيحَ صَحبى بعد طول سرورهم قعدو إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم يا شرميونُ لينظروا جَلَدى فيَهدأ بعضُ ما يجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تحنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ضحيةُ الأنانيهْ
جَنتْ عليها غُرْبةَ الـ ـأسر الأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الـ ـبرَّ بْوَة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة بعد العيون الجاريه

يا جارتا شأنك لا يُشْبِهُ إلا شانيه
لم يبق من مُلكى العريـ ـض غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابلةٌ عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغـ ـنا من حياة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [الى أنشو] :
أنشو يعزُّ عليَّ أنك ساهمٌ يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قولٌ يسُرُّ وضحكةٌ إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعت يسرنى أعَلَى سرورى اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتى جرى بما فيه سرورُك القدرْ
من لا تسرُّه السما ءُ لا يسره البشرْ

الملكة : أياسُ، هل من صوتٍ؟ غَن نشيدَ الموت

[أياس يغنى هذا النشيد]

يا طيبَ وادى العدَمْ من منزل من منزل
لم تَمش فيه قدمْ للعُزّلِ وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبى وحبيبى فيه لى

***

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ	واحمِلْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوع السِّراع	إلى شُطوط النجاه

***

شِراعُك الفِضِّى	فى لُجِّه التِّبرى
كالحُلْمِ فى الغَمضِ	يجرى ولا يجرى

***

فى ظل ليل ساجْ	أقسم لا يَسرى
مُغلَّلِ الديباجْ	مُطيَّبِ السِّتر

***

فى يقظةٍ يَظهرْ	لى أم أرى حُلْمَا
فُلْك من الجوهر	يَخترِقُ الظُّلما

***

على الدجى لمَّاح	تحسَبُهُ نجما
ليس به ملّاح	يسلُكه اليمّا

***

أضوَى من الفجر	فى ظُلمة الأسداف
من نفسه يجرى	لم يجُرِه مِجداف

***

مَــدّ شِــراعَ النــورْ يا حُسنَ ما مــدّا
كاللـؤلـؤ المنشـور لـو ينفـحُ النَّـــدّا

***

يــا لكَ من زوْرقْ مَـــلّاحُه الأقــدارْ
ينجـو بـه المُغـرَقْ من لُجّةِ الأكدار

[يدخل الحارس]

الملكة : ما وراء الحارس؟

الحارس : الطا عة ياذاتَ الجــلالهْ
قائــد يحمِــلُ من قيـ صــرَ أكتافو رسالهْ

الملكة : أدخـله ، أدخـــلْ رســـولَ قيصـــرْ

[يخرج الحارس و يدخل القائد]

القائد : قيصرُ العــالى إلى سـ ـيـ ـدتى يُهـدى التحيهْ
هـو فى الثُّكنة بالقر ب من الدار السنيــه
يُظهِــرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيّه
ويقولُ الأمرُ ما تأ مُرُ فى الاسكندريه
ولهــا الوادى وما يحـ ـمِــلُ مُلْكا ورعيّــه

وبنوها يَرِثون الـ ـمُلكَ من روما الوصيه
وإذا حَـلّتْ بـروما وجدت روما حَفيّـه
تتلقّـاهـا كأغلى درة فى القيصـريه
ما الذى تقـترحُ المُلـ ـكةُ ما تُمـلِى عليّـه
لتقـلْ سـيدتى حا جتَها تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حـلت بـروما وجـدت روما حفيه !
تتلقـاهـا كأغلى درة فى القيصـريه !
[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القـائـدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأداءْ
بلّغنْ قيصـرعنى كلَّ شكـر ودُعاء
ثم زِدْ أمنيـةً قـد بقيَـتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمهُ ما سرّ من أمرى وساء
لى سرٌّ كادعن نفـ ـسىَ يَزْوِيه الخفَـاء
صُنته عن صاحبـاتى وصحـابى الأمنـاء

حبـــذا لــو زارنى قيـ ـصرُ فى هــذا المساء
وله الشكـــرُ إذا لم يأتِ أو إن هــو جاء

القـائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبَات
ولِمْ لا يُلبِّ دعوةَ الحسن طائعًا ويسعى له مُستعجِلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسُ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العَتَبَات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القـائد :

إذن فَهِيَ لى تلك من هفَواتى

[يخرج القـائد]

كليوباترا :

أرانىَ لم يُحسِنْ إلىّ مُعاصرى ولم أَجِدِ الإنصافَ عند لِداتى
فكيف إذا ما غيبَ الموتُ ذَادتى وبَدَّد أنصارى وفَضَّ حُماتى!
كأنى بعدى بالأحاديث سُلِّطت على سيرتى أو وُكِّلتْ بحيـاتى
وبالجيل بعد الجيل يَروى زخارفًا فمن زور أخبـار و إفك رُواة
يقولون أُنثى أفنت العمرَ بالهوى بهيميّــة اللــذات والشهوات

فِدًا لغرامى بالرجال وحُسنِهِم غرامُ الغوانى أو هوى المَلِكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسنِ فتنتى ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلات
ولم يَسْتَثِرْ وَجدى من الروم فتيةٌ جُنون العذارى فتنةُ الخَفِرات
ولا كلُّ غصن من بنى مصرَ مائلٍ يَطيرُ إليه قلبُ كل فتاة
يموتون بى عشقًا و يَشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومَمات
ولكن عشِقتُ العبقريَّةَ طِفلةً وفى الغافلات البُلْهِ من سنواتى
كلِفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنَبات
إذا هب من غرب البلاد تلفّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تعثَّرَ حظى بعد طول سلامة وأقلع نجمى بعد طول ثبات
ومن يَمشِ فى وَرد الأمور وشَوْكها يَعُدَّ الخُطا أو يحسِبِ العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحبا بالسَّلَّهْ والرُّقُبِ المُطِلَّهْ
الكافياتى الذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابى]

كليوباترا :

أدخلى بى يا شرميون على طِفْـ ـلى- أُودِّعْهمُ الوَداع الرهيبا

فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صدرَك الحَفِىَّ الرحيبا

[الحابى وهيلانة] :

ولدىَّ أهجروا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجةٌ وفيها فُضولٌ يُرهِقُ الحبّ واشيا ورقيبا
خلّيا عنكما المدائنَ يا بنْتَ فضوْضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبَةَ حقلا طيبَ الماء والهواء خصيبا
غَرستْه يد الشباب فأضحى وارفا كالشباب حُسنًا وطيبا
ألِفَ الحبُّ من نواحيه أيكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمِعُ البُلبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفةُ العَنْدليبا
أفُقٌ لا يُظِلُّ إلا مُحِبًّا وثرى لا يُقِلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تريا الماءَ للحَبَاب لعيبا
وسلا الوردَ هل تنفّسَ فى الور د وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدرِكا لذةَ الشروق ولمّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليو باترا وشرميون]

حابى :

هيلانُ ، هذا مقالُ النصح من مَلكٍ فما تَرَيْن وما تَنْوِين هيلانا

هلُمّ طِيبةَ ننزلْ فى خمائلها ونَبْنِ مِثلَ بناء الطير دُنيانا

كطائرَيْن على بحرٍ وعاصفةٍ قد آنسا من وراء الشَّط بستانا

تداركتْنا أبرُّ الممالكات به وأشرفُ الناس إحساسًا ووِجدانا

هيلانة :

حابى ، عرفتَ الحلال الطيّبات لها وكنتَ أمس أقلَّ الناس عِرفانا

حابى :

خلِّ الجفاءَ حياتى إن ساعتَه مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا

اللهُ يشهدُ أنى قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأى نسيانا

وأننى اليوم أبكيها وأندُبها ولا أقيسُ بها فى الطهر إنسانا

اليوم ضحّتْ وزكّاها الفداءُ كما زكّى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التى شب فى نَعمائها صِغَرى ونبّهتْ لى سُلطانها شانا

إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابى :

والحبُّ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابى أراها أزْمَعتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ

فاذهبْ فجئْ بأنوبيس فعسى يردُّ الفاجعه

حابى : وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر

فى غدٍ أيها الملا كُ الى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة : ويح حابى اعتقادُهُ أن سأحيا فناتقى

ليتنى نلتُ قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليو باترا وفى أثرها شرميون]

كليو باترا :

بروحى وإن لم تبقَ منى بقيةٌ صغارٌ ورائى ذُوَّقُ اليُتْمِ نُوَّحُ

أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى حملتُ عليهم ما يجلُّ ويفدَح

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يرضى لى ولا النبلُ يسمح

فصفحًا صغارى إن شقيتم بمصرعى وإنى لأرجو أن تغضوا وتصفحوا

وَداعا صغاري صيّر الله يُتمكم إلى خير مايكفى اليتامى ويُصلح
أطفتُ بكم والنومُ تَسرى سِناتُه على صفحات كالأهلّة تلمحُ
وما منكمُ فى الخزِّ إلّا حمامةَ عليها طليلٌ ناعمَ القَرعِ أفيح
تنامُ وما تدرى الكرى ما وراءه ولا الصبحُ فى ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدوا على الدنيا كأمسِ طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبحَ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكين وأنت شرميون
كفكفا الدمعَ فلا شدّة إلّا وتهون
واعلما بنتيَّ أن البؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلى وضلالى وخلتْ كأحلام الكرى آمالى
وصحوتُ من لَعِب الحياة ولهوها فوجدتُ للدنيا خُمارَ زوال
وتلفّتت عينى فلا بمواكبى بُصرتْ ولا بكتائبى ورجالى
وطئتْ بساطى الحادثاتُ وأهرقتْ كأسى وفضّتْ سامرى ونِقالى
إِزيسُ ينبوع الحنان تعطّفى وتلقّى لضراعتى وسؤالى
أنت التى بكت الأحبّة واشتكت قبل الأرامل لوعة الإرمال
إنى وقفتُ على رحابك فارحمى ذلّ الملوك لمجدك المُتعالى

هل تأذنين بأن أُعجِّل نُقْلتى وأَحُثَّ عن دار الشقاء رِحالى
وعُلاكِ ما أدعُ الحياةَ جبانةً أو ضِيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعتُ بعبقرىِّ جمالها وتمتعتْ من عبقرىِّ جمالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى وقَرَنْتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدتْ أبطالَها فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشهَدُ سيرتى ما كنتُ من أمى سوى تمثال
منها تناولتُ الرِّياءَ وراثةً وأخذتُ كلَّ خديعة ومِحال
وقسوتُ قسوتَها ولِنتُ كلينها واقتستُ فى صَدّى بها ووِصالى
ولربما رَشَدتْ فسرتُ برُشدها وغَوَتْ فأغوتْنى وضل ضلالى
ووجدتُها حبًّا يَفيضُ ولذةً فجعلتُ لَذَّاتِ الهوى أشغالى
يومى بأيامٍ لكَثرة ما مشت فيه الحياة وليلتى بليالى
ولقد لَقِيت من الحياة صَبيّةً ما جل من بؤس ورقة حال
فخلعتُ مُلكى طفلةً وشَردتُ فى صدر الصبا ورأى المَكارهَ آلى
شرعتْ علىّ السوطَ فى كُتّابها واليومَ تَضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجِد بك أن يُسابقَ واقعَ الآجال ؟

يومى أعجّله ولو لم أنتحرْ للقيتُ يومًا ماله من تالى
ياموتُ أنت أحبُّ أسرًا فاسبِنى لا تُعطِ روما والشيوخ عِقالى
ياموتُ لا تُطفِئْ بشاشة هيكلى واحفظْ ظواهرَ لمحتى وجلالى
ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما سرق الكرى عينَ الخَلىّ السالى
حتى أَموتَ كما حَييتُ كأننى بيتُ الخيال ودُميةُ المَثّال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سِرْبى الى أنطونيو فى نَصرتى ورُواء جلبابى وزينة حالى

[تقوم الى إحدى السلال وتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمِّى الآن مُنقِذتى هَلمّى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شَرَبتُ السمّ من فيكِ المُفدّى بسلطانى وزِدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا شفاءُ النفس من سُودِ الليالى
وبعضُ السم تِرْياقٌ لِبعض وقد يَشفى العُضالُ من العُضال
دعوْتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ فبُعدًا للحياة وللنِّضَال
هَلُمِّى عانقى أفعى قصور بها شوقٌ الى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى وَلَصّتْ جواهرَ أسرتى وحُلِىَّ آلى

فرُمتُ الموتَ لم أَجبُنْ ولكن لعـل جلالَه يَحـمى جـلالى
فـلا تَمشِى عـلى تاجى ولكن على جسدٍ ببطن الأرض بالى
وقـد علم البريّةُ أن تاجى تَمتّـه الشمسُ والأُسرُ العوالى
يُطالبُـنى به وطنٌ عزيزٌ وآباءٌ ودائعُهـم غـوالى
أأدخلُ فى ثيـاب الذل روما وأُعرَضُ كالسّبيِّ على الرجال؟
وأُحدَجُ بالشماتة عن يمينى ويعـرِضُ لى التهكُّمُ عن شمالى؟
وألقَ فى النّـدِىِّ شيوخَ روما مكانُ التـاج من فَـرْقى خالى؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى قصورَ العزّ والغُـرَفَ الحوالى؟
وتَحكُمُ فىّ روما وهى خَصمى وتُسرفُ فى العقـوبة والنّكال؟
يَـرانى فى الحبـائل مُترَفـوها وقد كان القيـاصرُ فى حِبـالى
إذن غيرُ المـلوك أبى وجدّى وغَـيرُ طـرازهم عَمّى وخالى!
سأنزلُ غـيرَ هائبـةٍ إذا ما تلمّـظت المنيّـةُ للـنزال
أموتُ كما حَيِيتُ لعرش مصر وأبـذُلُ دُونه عرشَ الجمـال
حيـاةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنـايا تَعـالَىْ حَيَّـةَ الوادى تعـالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتىْ وُدّى ... هلُمّا ... زيّنـانى ... ... للمنيــهْ
غلّلانى ... طَيِّبـانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
ألبسانى حُــلّةً ... تعْـ ـجِبُ أنطونيو ... سنيـه
من ثيابٍ ... كنتُ فيها أتلقـاه ... ... صبـيه
ناولانى التـاج ... تاجَ الـ ـشَّـمس ... فى مُلْك ... البريه
واتركا ... بين ... يدىْ ... عر شى ... الريا ... حين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبترا و يالهــفى عليـــك يا كلــو بترا
وَصيفاتُك فى الدنيـا وَصيفاتُك فى الأخرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبتِ اليو مَ بالدنيـا كلــو بترا
تعـالىْ أيهـا الأفعَى أريحيــنى أنا الأخرى

[يدخل أنو بيس وحابى]

أنو بيس :

انسلتِ المُهرَة من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد !

حابى :

هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ
على الفتاة الحُرّة النجيبهْ

[يتحسس جسمها]

يا للحياةِ ماتنى دبيبا أبى ، تأمّلْ جسمَها الرطيبا
واسمعْ تجِدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس :

حابى نسيتَ حُقّـةَ النجاة !

حابى : هيهاتِ أَعصِيك أبى هيهاتِ
إن أنسَ أَشياءَكَ أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُـــذْها :

أنوبيس :

بل اسكبْ فى فم الفتاةِ لعلها تصحو من السُّباتِ

[يشتغل حابى بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفِـدا فوجدتُ عندك فوقَ ما أنا راجى



بنّى رجوتك للضحية والفـدا   فوجدت عندك فوق ما أنا راجى

(صفحة ١٠٨)

إنْ تُصبحى جسدًا فنفسُك حرةٌ وعُلاك سالمةٌ وعِرضُك ناجى
سيقولُ بعدك كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن فى سبيل التاج

[ثم يلتفت إلى جثة شرميون] :

وأنتِ أيضًا شرميونُ جيفهْ متِّ ولكنْ ميتةً شريفهْ
ما أعظمَ المَلْكةَ والوصيفهْ !

حابى : أدنُ أبى ألقِ النظرْ يا لَعجائبِ القدرْ !

أنوبيس : أحدث ترياقى الأثرْ؟

حابى : أنظرْ أبى ترياقَك الـ ـمحسن ماذا منحا ؟
أنظرْ فهذا مَلَكى من رقدةِ الموتِ صحا
قد فتح العينين بعـ ـد اليأس من أن تُفتحا
وهذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا
مولاى قد قَرَّبتَ من سعادتى ما نَزحا
أنت الذى رددتَها رُوحًا وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا ويح لى ! ويح ليهْ هل صَدَقتْنى عَينيهْ ؟
حابى، أفى الدنيا أنا؟

حابى : بل أنت دنياى هنا

هيلانة : منذا حنى عليه حتى بعثت حيه ؟

حابى : أبى الذى شفاك يا ملاكى .

أنوبيس : لا بل ملاكُ الحب قد شفاكِ
وأدمعُ الإخلاص من فتاكِ

هيلانة : أبى لقد مرّ على الموتُ وكنتُ من عذابه نجوْتُ
علام حالت بينه و بينى؟ الموتُ لا يُذاق مرّتين

[ترى جثة الملكة وهى تتلفت]

رحماكِ آلهة الوادى ذهلتُ فلم أذكرْ ملاكاً وراء العرش مضطجعا
بالأمس، لا، لا بل اليومَ التحقتُ به صُرعتُ بالناقع السارى كما صُرِعا
لقد رحلنا عن الدنيا الغرور معا مالى رجعتُ إلى الدنيا وما رجعا
ليت الطبيبَ الذى داوى فأخرجنى إلى الحياة على الدنيا به طلعا
مليكتى ، ربتى ، صفحاً ومغفرةً إن المروءةَ كانت أن نموت معا

الكاهن : بُنيّتى ...

هيلانة : صه أبى ،

الكاهن : لا أنتِ واهمةٌ
فلستما فى ملاقاة الردى شرعا

وقفتُما موقفًا فى الخَطْب مختلفًا لو جَرّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابى : تعالىْ نَحْيَ فى الحَقْلِ مـع الطـير كما تحيـا ؛
هَلُمّى الحبَّ هيـلانـ ـةُ فالحبُّ هو الدنيا
أبى دونك بارِكْـنا وإن شئتَ فشارِكْنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محـرابى فمن يبـكى على مصرا ؟
سأبـقى هاهنـا ابنَىَّ إلى أن أقضِىَ العُمر
هَلُمّـا ابنىَّ باسم الـ ـله سِيرا وابنيـا الوَكْرا
هلمـا جنـةَ الوادى هلمـا طيبـةَ الغَـزّا
لـئن فرّقنـا الدهرُ فقـد تَجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق] :

أنوبيس : البـوق دَوَّى قيصـرُ أقبـلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مولاى قيصـــر

[يتنحى عن الباب و يدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس]

أنوبيس :

ما يَبتغِى قيصرُ من أسيرتهْ ؟ إنـــ التى أعدّها لزينتـهْ

يَدخل روما وهى فى كتيبتهْ تَزيدُ فى مَوكبه وقيمتهْ
ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئتهْ بُوركَ فى النيل وفى عَقيلتهْ

قيصر :

آلهةَ الرومان ! ماذا أرى؟ إمرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسخَرُ بالكائد
فى الجسد الحىّ تمنّيتُها لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ قيصرُ والطبيبُ!
يَغدُرُها وعهدُه ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلًا ولكن لا أرى أثرَ الجِراحِ!
أليستْ فى الفَناء أرقَّ لونًا وأندَى من رياحين الصباحِ
فهل تدنوفتكشفَ كيف ماتتْ أبا السم الزُّعاف أم السلاح؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]



عجيب ياطبيب أرى قتيلا ولكن لا أرى أثر الجراح !؟

(صفحة ١١٣)

ألمبوس :

جبـين مُشرقُ الغُـرّهْ ووجـهٌ ضاحكٌ نَضَرهْ
وعينـان كأنّ المـو ت فى جَفنيْهما كَسْرَه
وهـذا فمُهـا تبـدو الـ منايا عنـه مُفـتَرّه
ولكن قيصرُ ادنُ انظـرْ هنا السـرُّ هنـا العـبره
فبين السِّـحر والنحـر كمثل الخَدش من إبره
مكانُ الناب من صِـلٍّ شديد البأس والشِّـرّه

[تلدغه الأفعى]

إلهـى ، قيصـرى ، آه لقد مَسّتْ يدى جَمـرهْ
سـرى السمُّ بأعضائى وعَمّتْ جسـدى فَـ ...
وجاءت سَكْرةُ المـوت ...

أكتافيوس :

ويل ا
ويح ا . . ر

أنو بيس [لنفسه] :

قـد وقـع الحاف

قيصـر :

وَداعًا كلوبترا الى يـوم نلتـقى وتَنفُضُ عنها الهامدينَ المَقابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا فلا الثأرُ ملحاحٌ ولا الحقدُ ثائر
وما استحدثَتْ عند الكرام شماتةً صُروفُ المنايا والجُدودُ العواثر
وَداعا وإن نحن اقتتلنا وجرَّدتْ حُساميهما أوطانُنا والعَشائر
تَحدَّيتني بالموت حتى قهرتني ومالىَ سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قيْدى ومُتِّ عزيزةً وأيدى المنايا للقيود كواسر
وأنت التى نازعت روما مكانَها وجرَّتْ بناديك القيودَ القياصر
لعبتِ بأنطونيو ويوليوسَ حقْبةً كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلّا سيفُ رومةَ باترًا أصيبَ به سيفٌ لرومةَ باتر
زَجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مُكرَهًا وفى الحرب إن لم تَردَعِ السِّلمُ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثله يُطاولُ أنسابَ الملوك المُصاهر
وَداعًا عروسَ الشرق كلَّ ولاية وإن هَزَّتِ الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثري أيها الذئاب عُواءً واَدّعي في البلاد عِزًّا وقهرا
أنشِدي واهتِفي وغَنّي وضِجّي واسبحي في الدماء نابا وظُفرا
لا وإيزيسَ ما تملّكتِ إلا وادياً من ضَياغم الغاب قَفرا
قَسَمًا ما فتحتُمُ مصر لكن قد فتحتُمْ بها لرومةَ قبرا

« ستار الختام »

نظـــرات تحليلية

كليوباترا والتاريخ :

فى عصر من عصور التطور السياسى الدائم على عرش مصر، وفى النصف الأخير من القرن الأوّل قبل الميلاد، احتكت عظمة الامبراطورية الرومانية بالسياسة المصرية القديمة، وطوت فى هذا الاحتكاك آخر صفحة من تلك المدنية الزاهرة التى اصطبغت بها مصر فى ظل البطالسة وتحت حكمهم أكثر من ثلاثة قرون .

وجاء دور المؤرخ ليسجل أنباء هذا الاحتكاك فكان من سوء حظ العلم :

(أوّلا) أن استق هذا التاريخ مادته من مصدرين كانا كل وسائل التاريخ القديم . فالمصدر الأوّل آثار يعرض لها عادة فى مثل هذه العواصف السياسية المضطربة غير قليل من التزييف والضياع . والمصدر الثانى رواة يجتهدون فى رواية الحوادث اجتهادا، فيخطئهم التوفيق أحيانا، فيروونها لا كما كانت ولكن كما اشتهوا أن تكون .

(ثانيا) أن نهضت بهذه المهمة الخطيرة أقلام، إما رومانية وإما مدينة لروما هوى أو ثقافة ، فسجلت هذه الأقلام تاريخ هذا الانتقال السياسى فى أسلوب قصصى ، فاز فيه قياصرة

الرومان بأكاليل الغار كلها ، فالظافر من بينهم بطل ، والمخذول منهم ضحية ، وللضعيف على كل ما فعل أو أسف علل قوية من هوى هذه الأقلام فى حين أن الملكة المصرية المظلومة — كليوباترا — الممثلة الأخيرة لمجد البطالسة وسلالتهم ، والتى سوّى على حساب سمعتها وكرامتها وأفول نجمها هذا الحساب الخطير، لم تصب منه إلا ركاما من التبعات والآثام واللعنات .

ظهرت حية النيل العجوز — كما نعتوها — فى هذا التاريخ ، وعمدته « بلوتارخوس » ، وفى معظم الروايات التى استوحته واستقت من معينه ، فى مظهر امرأة خطالة متهمة فى عفتها من حيث هى امرأة ، وفى جلالها وإخلاصها لبلادها من حيث هى ملكة ، مجرد ...

« ... أنثى أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات »

خاضعة فى كل أدوار حياتها السياسية لشهوة مذبذبة ، تدفع بها رخيصة الى كل صاحب مجد أو جاه ، متصلة — ما اتصلت فى هواها — ببطل ، منفصلة — ما انفصلت — عن « حطام مبعثر مستباح » ، دائبة البحث عن فريسة جديدة تستل آمالها ، وتسلبها جلالها ، وتهيض من جناحها المحلق فى سماء المجد والخلود.
وعجيب أن تقفر حياة كهذه الحياة الحافلة بالمآسى إلا من هذا

الركن الدنس، وعجيب ألا يرى أولئك القصاص فى هذه النفس الطموح ظلا لأمل خير أو حلم نبيل، وعجيب أن تجثم فى كل ناحية من نواحيها رذيلة تهب المداد لهذه الأقلام !

مرمى الرواية :

أليس المؤلف المصرى إزاء هـذا الاضطهاد الصارخ لهـذه الملكة المصرية، بحكم الثلاثة القرون التى قضاها أجدادها العظماء على ضفاف النيل، مستقلين عن كل نفوذ أجنبي، أبرياء إلا من العمل المتصل لمجد مصر ورفاهتها، مستحيلة دماؤهم قطرة فقطرة الى دماء مصرية خالصة على توالى الأيام . أليس المؤلف المصرى فى حل — مادام البحث العلمى يكشف بين الحين والحين فى هذا التاريخ المتهـم عن حلقات ضائعـة أو أوهـام أنزلت فيـه منزل الحقائق — من إنصاف هذه المصرية المضطهدة، ولو إلى الحدّ الذى يتفق مع هيكل هذا التاريخ المجرّد، ولا يحرمها على الأقل من سموّ الغاية ونبالة المقصد ؟

أعتقد أنه ليس فى حل من هذا الإنصاف فقط، ولكنه مسئول عنه الى أن يصل البحث الحديث فى تقرير حقيقة التاريخ القديم الى آخر مداه فيعز من يشاء ويذل من يشاء .

على هـذا الأساس يضع مؤلفنا المصرى اليـوم فى " مصرع كليوباترا" صورتين جديدتين : إحداهما لتاريخ كليوباترا فى قليل من التحوير المنطق المعقـول لتاريخها القـديم ، والآخرى لحياة كليوباترا حريصا فيها على أن تحاط بنفس الجو الظنين الذى يحيطها به رواة التاريخ القديم ، مانحا إياها الحق الأكبر فى الدفاع عن نفسها وعن سياستها وعاطفتها ، غـير تارك لسواها من أشخاص الرواية إلا حظا ضئيلا من هذا الدفاع ، وهو إذ يمنحها هذا الحق دون سواها من أشخاص الرواية إنما يحرص أولا على أن يترك لأولئك الأشخاص مطلق الحرية فى تحديد هـذا الجو الظنين ، وثانيا على ألا يقسو فى مس الكرامة العامة للتاريخ ، وثالثـا على أن يترك الباب مفتوحا لتحقيق مالهذا الدفاع من وجاهة فى نظر البحث الحديث المنصف .

كليوباترا فى نظر التاريخ القديم :

ولدت كليوباترا سـنة ٦٩ قبل الميلاد ، وكانت على أن تبنى بأخيها الأكبر وتتولى العـرش معه ، فنوزعت فى هذه الشركة ، ففرّت إلى سـوريا لتعبئ جيشا هناك تسـتعيد به تاجها المفقود . وهناك صادفها يوليوس قيصر ، فوقعت من نفسـه ، فمكنها من العرش شركة مع أصغر أخويها ، فما لبثت أن قتلته مسموما وتبعت قيصر إلى روما فاحتفى بها حفاوة أثارت سخط الرومان .

وقتل قيصر فترددت كليوباترا أى الصفين تتبع : أصف واتريه أم صف الموترين فيه ، حتى إذا تم النصر لخلفاء قيصر على قتلته دعاها أنطونيوس الى طرسوس لتقدم حسابا عن هذا التردد المقصود ، وقد لبت دعوته فسارت اليه فى موكب بحرى فخم تجلت فيه روعة الشرق وجلاله وغناه ، وكانت يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمرها على أبهى ما كانت من سحر وفتنة وجمال ، فما لبث أنطونيوس أن رآها حتى افتتن بها وضحى فى سبيلها بمكانه وكبريائه ، وأخيرا بملكه ومطامعه وحياته . وقضيا الشتاء التالى فى الاسكندرية فى غرام نسيا فيه كل شىء ، وعلى أن أنطونيو قد رجع الى روما وتزوج من أكتافيا شقيقة أكتافيوس ، فقد عاد الى كليوباترا وأقام معها وسخا لها ولأبنائها بالعطف والتكريم ، وفى نشوة هذا الجنون كان اسمه يتضاءل فى روما ، وكانت قواه السياسية والحربية تخور .

وفى سنة ٣٠ قبل الميلاد اشتبك القيصران فى وقعة أكتيوم البحرية ، وكانت كليوباترا بطبيعة الحال تؤازر بأسطولها أسطول أنطونيوس ، ففرت أثناء المعركة وفر فى أثرها حبيبها المفتون ، وبذلك كتبت عليهما الهزيمة الأولى ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة برية على أسوار الأسكندرية ، وكاد النصر فى أولها يواتى أنطونيوس ثم سرعان ما تنكر له وتم عليهما الخذلان الأخير .

وحاولت كليو باترا أن تأسر بجمالها القيصر الظافر، وأن تفعل به ما فعلت بأنطونيوس ، فاشتركت معه فى مفاوضات لصالحها الخاص ، وأرسلت الى أنطونيوس من أوحى اليه بموتها، فاتكأ على ظبة سيفه حتى إذا علم فى احتضاره كذب هذا الوحى، أمر أن ينقل اليها حيث جاد تحت شفتيها بالنفس الأخير . وأيقنت كليو باترا بعدئذ أن القيصر الظافر إنما يخدعها عن نفسها، وإنما يريدها شارة ممتازة فى موكب انتصاره، فانتحرت تاركة وراءها بنتين من أنطونيوس كفلتهما أكتافيا ، وولدا من يوليوس قيصر (قيصرون) قتل فى عهد أكتافيوس ، وجسدا هامدا ضمه القبر إلى رفات أنطونيوس ، وذكريات حية خالدة ...

فضمن عن الملوك والقواد وصرن وحى شاعر وشادى
وفتنة اليراع والمداد

وجوه الاختلاف الأساسى بين الحوادث التاريخية والحوادث الروائية

يهمنا من هذه الحوادث إزاء الرواية ما تناول الأيام الأخيرة من حياة كليو باترا، تلك الأيام التى لم تتناول الرواية سواها، فنرى:

(أوّلا) أن فرار كليو باترا من وقعة أكتيوم كان جبنا وغدرا فى التاريخ :

وترى أثر هـذه النظرية التاريخيـة فى الرواية حيث يعتب أنطونيوس على كليوباترا :

وقلت انسحبت ضـعفا وقال النـاس بـل غدرا

فى حين أن هذا الفرار فى الرواية جزء من سياسة كليوباترا — وسوف نبسطها بعـد قليل — ويدل على ذلك وعلى روح هذه السياسـة قول كليوباترا .

فتـأملت حـالـتى مليـا وتدبرت أمر صحوى وسكرى

وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

كنت فى عاصف سللت شراعى منـه فانسلت البـوارج إثرى

(ثانيـا) أن التاريخ لم يذكر أن جيش كليوباترا فر من المعركة البرية بينما سجل المؤلف هذا الفرار فى الرواية تمشيا مع السياسـة التى اختطتها كليوباترا لنفسها ، وفى ذلك يقول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

(ثالثـا) أن كليوباترا هى المسئولة أمام التاريخ عن انتحار أنطونيوس بينما يبرئها المؤلف من هـذه التهمة ، ويخلق شخصية خيالية يلقى عليها هذه التبعة ، هى شخصية الطبيب أولمبوس ، ونرى ذلك حيث تتساءل كليوباترا فى لوعة ولهفة :

من نعانى كذبا من قالها لك

وإذ يجيبها أنطونيوس :

« أولمبوس النذل الخؤون »

وحيث نسمع أولمبوس فى الفصل الثانى من الرواية مهدّدا ناقما :

أوروس أنطونيو حسابكما غدا روما الأبيـة لم تنم عن ثارها

وحيث نلمس مكمن الحيلة بين هذه النقمة وذلك الانتقام .

(رابعـا) حاولت كليوباترا تاريخيا أن تتصبى عدوّها الظافر، وأن تغدر حبيبها المخذول، ثم انتحرت عند ما فشلت هذه السياسة، والمؤلف ينزهها عن هذا الإسفاف، ويجعل أوّل لقائها لأوكتافيوس وأوّل اتصاله بها عقب مصرع أنطونيوس ، ثم يجعل من هـذا الاتصال مفاوضات ، ويجعـل فى هـذه المفاوضات خداعا من قيصر وإباء من كليوباترا ، فلا تصبى ولا محاولة إيقاع فى غرام، ثم يجعل انتحارها حرصا على تاج مصر أن يذله العرض فى روما من ناحية، وذلك إذ تقول :

سطت روما عـلى ملـكى ... ...

فرمت الموت لم أجبن ولكن لعـل جـلاله يحمى جـلالى

فـلا تمشى على تاجى ولكن على جسد ببطن الأرض بالى

ووفاء لأنطونيوس من ناحية أخرى وذلك إذ تقول :

أيهـا الذاهب قد آ ن عن الدنيا ذهوبى

أيها الخالص ودّا لبس ودّى بالمشوب
... ...
عن قريب ينطوى القبـــــر علينا عن قريب

صورة تحليلية لأهم أشخاص الرواية

كليوباترا

ما فتئ المؤلف منذ مطلع الرواية الى مقطعها يؤكد جنسية كليوباترا المصرية وإن تحدّرت من نبعة أجنبية، فقد كان الزمن الطويل الذى قضاه أجدادها فى مصر — كما أسلفنا — كافيا لتمصيرها .

وعبث أن نختار من الرواية قطعة دون أخرى لإثبات هذه الجنسية، فالرواية كلها دليل متصل، نسجل منه على سبيل المثل قولها :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وقولها :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

ثم قولا آخر احتال فيه المؤلف على تبرير هذه الجنسية، متحاشيا فى هذا التبرير إلا مجرّد التلميح من بعيد لدمها القديم، وذلك إذ يقول حابى لزينون :

أخى هـذا أتيـنى   وخلى ذاك مقدونى

...   .

كلا الخلين ذو جدّ   بأرض النيل مدفون
فليسا فى هوى مصر   وفى طاعتهـا دونى

وتصوّر الرواية كليوباترا من نواح ثلاث يستحسن أن نبحثها منفصلة : الأولى من حيث هى امرأة، والثانيـة من حيث هى ملكة، والثالثة من حيث هى شخص سياسى :

كليوباترا امرأة

(١) جميـلة :

وأمام جمالها يتمنى زينون رأسين :

يطأطئ رأسا لمجـد النبـو   غ ويخفض رأسا لمجد الجمال

ويناجيها أنطونيوس قائلا :

ردّى على هامتى الغار التى سلبت   فقبلة منـك تعلوها هى الغار

ويذكرها وهو يودع الدنيا:

لما لقيتك فى الجمال وعزه   قهرت قواى الظافرات قواك

وفى احتضاره يهتف بها :

كليوباترا زوديني قبـلة   من ثناياك العذاب الشبمات

وهيلانة تحدث عنها :

لم يحـــو شمسين الفلك

وأنوبيس يلقبها :

شعاع المدائن نور القرى

وحبرا ينبهر أمام كفها ...

عجب عيني لا تقـ ـوى على هذا الضياء
هــذه كـف إله جاء فى زى النســاء

ورسول أكتافيوس قيصر يعجب لمولاه كيف :

... لا يأبى دعوة الحسن طائعا ... ...
وقد كان يوليوس يقوم ببابه ويمثل أنطونيوس فى العتبات

(ب) قوية الثقة بجمالها :

ويوحى من هذه الثقة تناجى الإسكندرية قائلة :

وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا

وتصف عشاقها قائلة :

يموتون بى عشقا ويشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماتى

وحينما تفكر فى الانتحار لم يكن يشغلها من الدنيا شاغل إلا أن تحتفظ فى موتها بهــذا الجمال ويبــدو ذلك أولا فى الحــوار بينها وبين أنوبيس :

« ولكن أبى هل يصان الجمال » ؟ « وهل يطفأ اللون » ؟
« وهل يبطل الموت سحر الجفون » ؟

وثانيا عند ماتناجى شبح الموت :

يا موت لا تطفئ بشاشة هيكلى ... وآحفظ ظواهر لحتى وجلالى
... ...
حتى أموت كما حييت كأننى ... بيت الخيال ودمية المثال

وتتحدّث عن الحياة فتقول :

إنى آنتفعت بعبقرى جمالها ... وتمتعت من عبقرى جمالى

(ج) قوية البيان :

قوية يمثلها حابى حيث يقول :

ليسياس إنك قد سمعت حديثها ... كالسحر فى الآذان حين يدار
تبدو الخيانة فيه وهى أمانة ... ويرى الثبات عليه وهو فرار

(د) شاعرة :

وفى ذلك يقول لها أنطونيوس :

وقولى الشعر علويا

ويقول للمغنى إياس :

غننى شعر ملاكى ... غننى شعر الإله

ولها فى الرواية نشيدان : « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »

و « يا طيب وادى العدم »

(هـ) ولوع بالقراءة :

وفى ذلك يقول زينون :

... ... تنسى ملكها بلقاء الكتب أو تنسى هواها

وقد رأينا أن لها فى قصرها مكتبة .

(و) الأمومة لديها كالغرام — وسوف نتحدث عنه فى موضعه — عاطفة ثانية إذا كان حب المجد و إباء الضيم فيه عاطفتها الأولى :

وقد آشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

(ز) عفة الهوى :

وقد تروع القارئ هذه الحقيقة لأول وهلة ، إزاء سلسلة التهم القاسية التى وصمت بها كليوباترا فى الرواية كما يبدو من هذه الأمثلة :

(١) هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام

(٢) أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء ؟

(٣) قد آجترأت على روما البغى

(٤) صرح أبن قل غدرت قل جددت بقيصر الثالث دولة الهوى

(٥) ... ... أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات

لكن قليلا من التفكير يردّه الى وجه الصواب فاللهمة الثانية قد رماها بهـا حابى الذى كان يراها عن بعـد فى ضوء الاشـاعة السائرة، والذى لم يلبث أن نزل عن بعـد رأيه فيهـا حينما عرفها عن كثب، فعاد يعدها « أبر المـالكات » و « أشرف النـاس إحساسا ووجدانا » و « لا يقيس بها فى الطهر إنسانا » . والتهمة الأولى قد وجهت اليها من شـاب كان يشـترك وحابى فى نظرته الأولى اليها، لكنه لم يقترب منها ليرى ما رآه حابى فى النهاية . والتهمة الثالثة موجهة اليها من قائد رومانى غاضب لكرامة بلاده، أى من خصم سياسى موتور . والتهمة الرابعة صاحبها أنطونيوس، رماها بهـا ظلما فى ساعة يأس، ثم كفر عنها بانتحاره، وسوف نتحدث عن وفائها له بعـد قليل . والتهمة الأخيرة إنمـا تجمع فيها كايو باترا خلاصة ما يقال فيها وفى هواها ثم تدفعه فى قولها :

فـدا الغرامى بالرجال وحسنهم غرام الغوانى أو هوى الملكات

فليس الغلام البارع الحسن فتنتى ولا الرائع الأجلاد والعضلات

... ...

ولكن عشقت العبقرية طفلة وفى الغافلات البله من سنواتى

وفى قولها والضمير للحياة :

ووجدتها قـد خلدت أبطالهـا فبسطت سلطانى على الأبطال

(ح) وفية لغرامها مخلصة فيه إلا حيث يصطدم هذا الغرام بوطنيتها .

فأما وفاؤها لغرامها وإخلاصها فبـه فموقفها من أنطونيوس جريحا وميتا وبعد أن لم يعـد يرجى منه خير ولا أمل ، وذكرها له وهى مشرفة على الموت حيث تنادى الموت قائلة :

سر بى الى أنطونيو فى نضرتى وزينـة حالى ورواء جلبابى

وحيث تنادى وصيفتها قائلة :

ألبسانى حـلة تعـ ـجب أنطونيو سنيه

كل ذلك آيات على هذا الوفاء والاخلاص .

وأما تضحيتها بغرامها لسياستها فعلى الرغم من أقوالهـا « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » و « الحياة الحب والحب الحيـاة » ونحن قربنا له — أى للحب — ملك الثرى » و

هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

على الرغم من هذه العاطفة القوية التى أظهرتها كليوباترا دائما فى مواجهة أنطونيوس ، والتى لم يؤيدها الأمر الواقع ، والتى إن دلت على شيء ، فعلى أن كليوباترا كانت ككل امرأة سواها ...

(ط) — يداخلها فى حضرة حبيبها أثر المبالغة وروح الرياء ولعلها تعتذر عن ذلك إذ تقول والضمير للحياة :

بنت الحياة أنا ... ...
عنهـا تناولت الرياء وراثة وأخذت كل خديعة ومحال

نعود فنقول على الرغم من كل هذا إن غرام كايوباترا — كما سـوف نرى حينما نعرض لسياستها — ما تعارض يوما مع هـذه السياسة ومع ما كانت تكفل به التاج المصرى من حب ورعاية ، إلا نحرّ هذا الغرام صريعا .

بقيت نقطة أخيرة تتصل بهـذا الهوى ، وتلك أن كليو باترا كانت فى ساعات لهوها ...

(ى) تفنى فى هذا اللهو وتستمتع به وتنسى ما سواه .

وحسبنا فى الاشارة إلى ذلك قولها :

فاطو معى حوادث الـ ـأمس ولا تجـدّد
وامض معى فى لذة الـ ـيوم ودع هم الغـد

وقولهـا :

لتكونن ليـلة آخر الدهر تـذكر
لا نبالى إذا صفت بعـدها ما يكدّر

على أنها كانت تستظل فى هذا الاستمتاع بظل من الوقار يتبارى مع خلاعة الاغراق فيـه ، تلك الخلاعة التى كانت سمـة العصر

المترف المستهتر التي عاشت فيه ، والتي نكتفي من إثباتها بالإشارة (أولا) إلى قول القائل :

هلا نظرت إلى الأميرة إنها سكرى تعثر فى خليع عذرها

(ثانيا) إلى اتضاعها فى وليمتها حيث تترك يدها فى يسر لتكون نهبا بشفاه عرّاف صغير .

أما الظل الوقور الذى كانت تستظل به فى هذه الساعات اللاهية والذى يبدو فى قولها :

اجعلوها وليمة وبساطا يتبارى خلاعة ووقارا

فلعلها استمدّته من قبس دينى ما فتئ يتردّد على نفسها بين الحين والحين . وتبدو ...

(لك) مستمسكة بدينها إذ تهتف بأنوبيس فى موضع :

صل من أجلى ولا تنـ ـس صغارى فى صلاتك

وفى موضع آخر :

هذا مقام صلاتى وهيكلى للضراعه
ولى خطايا كثير لا تبرح البال ساعه
فادخل وصل لأجلى فمنك ترجى الشفاعه

وفى موضع ثالث :

أبى دخلت نفسى حيرى الزمام حزينه

وقد تركت المصلى ومل‍ء قلبي سكينه
إن الصلاة على شدّ الزمان معينه

وبين هذه العفة والوقار من جانب، وهذه المتعة والخلاعة من جانب آخر جهرت كليوباترا بهذا الاعتراف والضمير للحياة :

ولربما رشدت فسرت برشدها وغوت فأغوتني وضل ضلالي

ووصفها أنوبيس بأنها كشعاع الضحى :

يخوض الوحل ويغشى الحلى ويأوى الحضيض ويعلو الذرا
... ...
ولكنه طاهر حيث طاف نقى الذيول عفيف الخطا

كليوباترا ملكة

(ا) قوية الشخصية :

وأظهر ما تبدو هذه القوّة فى أربع مواضع . (الأوّل) حينما تدخل على زينون بعد أن لعنها وتآمر عليها فلا يكاد يسمع تحيتها حتى يردّها قائلا :

سلام السماوات فى مجدها على ربة التاج ذات الجلال

(الثانى) حيث يقول أوروس :

لولا الوليمة والشراب وجرمة لأميرة الوادى السعيد ودارها

(الثالث) حيث يقول أنطونيوس :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفساً بغير ملاك

(الرابع) حيث يؤبنها أكتافيوس :

لعبت بأنطونيو ويوليوس حقبة كما جاء بالمسحور أو راح ساحرا

بيد أن هذه القوة كانت تظهر أحيانا كأنها مشوبة بضعف، لكنه ضعف مصطنع ترى فيه المرأة دائما سلاحا من أسلحة قوتها. فهى حينما تنادى أنطونيوس :

مكانك قيصر لا تذهبن ولا تبرح القصر أهلك أسى

إنما تجرب قوة دلالها، وقد أفلحت فى هذه التجربة ورأينا كيف استنهضت بهذا الدلال من حماسة أنطونيوس، وكذلك عند ما تقول لأوكتافيوس :

نخذه من يد الموت ومن عاجزة تبكى

فقد كان ذلك منها تهكما بتهكم، وقد رأينا كيف وقفت بعد ذلك وقفتها فى إبائها وكبريائها الأعزل، فاضطرت القيصر المنتصر أن ينتقل فى خطابها من سخرية إلى احترام.

وفى ذلك تقول هى :

فإن تك بى خشية فى النساء فلى جرأة الملكات الكبر

ويقول أكتافيوس :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ولم تزل تسخر بالكائد

(ب) مصلحة :

وفى ذلك تناجى الاسكندرية قائلة :

وشيت برك جدولا ونخيلة وكسوت بحرك عدة وشراعا
وأنا اللباة وقد ملأتك غابة وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا
قد خفت من بعدى عليك ممالكا يطلقن فيك الفاتحين سباعا

(ج) فخور :

ويبدو هذا الفخر على أشده حينما تجعل نفسها « ضرة روما » إذ تقول :

اليوم تعلم روما أن ضرتها تقلد الغار من تهوى وتختار

وحينما تقول لحابى :

دع الذود عن مصر لى إننى أنا السيف والآخرون العصا

وحينما تقول :

وقد علم البرية أن تاجى نمته الشمس والأسر العوالى

وحينما تخاطب الاسكندرية قائلة :

« وأنا اللباة وقد ملأتك غابة »

وحينما تسأل العرّاف :

أحضيض يومى الآ خر قل لى أم سماء
خاتم الأيام أو لى باهتمام العظماء

(د) أبيــة :

وآية ذلك قولها لأنو بيس :

أبى لا العزل خفت ولا المنايا ولكن أن يسيروا بى سبيا

وقولها فى وداع حياتها :

أأدخل فى ثياب الذل روما ... ...
... ...
إذن غير الملوك أبى وجدّى وغير طرازهم عمى وخالى

وقولها فى وداع صغارها :

وقد أشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

وفى تأبين أكتافيوس لها :

ترفعت عن قيدى ومت عزيزة

(هـ) تتألف خصومها :

واحتيالها فى اجتذاب حابى اليها عن سبيل حبه لهيلانة خير دليل .

(و) عطوف على أتباعها :

تقول لوصيفتها :

أنت لى خادم ولكن كأنا   فى الملمات أهل قربى وصهر

وتقول لها وصيفتها :

يا رب ذنب ... ...   يتعب العذر فيه مهدت عذرى

وقد أكسبها هذا العطف تفانيا فى حبها من أولئك الأتباع .

فانظر الى هيلانة إذ تقول :

إن التى شب فى نعمائها   ونبهت لى فى سلطانها شانا

إن لم أمت دونها أو لم أمت معها   فما جزيت عن الاحسان إحسانا

وإذ تقول على جثتها :

ليت الطبيب الذى داوى فأخرجنى   الى الحياة على الدنيا به طلعا

وإذ يصل هذا التفانى الى حدّ التضحية بالحياة ، وإذ يتجلى الحزن الشامل على القصر ومن فيه فى الساعة التى أفل فيها نجم كليوباترا وأشرفت على مفارقة الحياة ، أنظر الى كل هذا تجد أن أولئك الأتباع وجدوا فى ظل كليوباترا العطف والرفق والاحسان .

(ز) غفـــور :

ويبدو ذلك فى قولها لحابى :

فمثلك تاب ومثلى عفا

(ح) جليـــد :

ونرى أثر هذا الجلد فى قولها :

ياويح صحبى بعد طول سرورهم   قعـدوا الى أحزانهـم يبكونا
جيئى بهم ياشرميون لينظروا   جلدى فيهدأ بعض ما يجدونا

(ط) تكره التملق :

وفى ذلك تقول لحبرا :

خاـنى من زخرف المـد   ح ومن زور الثنـاء

ســياسة كايوباترا

تقول كايو باترا لأوروس :

الحـرب فنـك أورو   س والســياسة فـنى

فهل هذا صحيح ؟

لقد كانت كايو باترا بعيدة النظر حينما عتبت على أنطونيوس عقب انتصاره فى اليوم الأوّل من يومى المعركة البرية على أسوار الاسكندرية أن ترك خصمه من غير أن يضربه الضربة القاضية بعد أن اقتحم عليه مضاربه ...

تركتهم لغد ؟ هذى مجازفة   غد غيوب وأسرار وأقـدار

وقد أثبتت هزيمة أنطونيوس فى اليوم التالى بعد هذا النظر .

وكانت كليوباترا بعيدة النظر كذلك حينما استشفت من خلال ذلك العرض المعسول الذى عرضه عليها أكتافيوس :

ولها الوادى وما يحـ ـمل ملكا ورعيه
وبنوها يرثون المـ ـلك من روما الوصيه
واذا حلت بروما وجدت روما حفيه

شبح الحيلة والخداع ، فكادت له كيدا اضطره أن يقف أمام جثتها موقف المنهزم يقول :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ... ...
فى الجسد الحى تمنيتها لم أبغها فى الجسد البائد

هذا من ناحية أخرى فقد اختطت كليوباترا لنفسها سياسة خاصة فى هذه الرواية ، وقد ظلت أمينة على تنفيذها حتى النهاية ، وقد فشلت فى هذه السياسة فشلا أفقدها حبها وتاجها وحياتها ، وأفقد مصر ما كان لها من شبه حرية واستقلال .

ونعرض الآن هذه السياسة ثم نتناولها بالبحث لنرى مواطن ضعفها وكيف انتهت الى هذا المصير .

وكانت كليوباترا أسيرة عواطف ثلاث :

(الأولى) حبها لمصر وحرصها على مستقبل تاجها . وقد رأينا أن الرواية ملأى بدلائل هذا الحب والحرص حينما تكلمنا عن جنسية كليوباترا .

(الثانية) حبها لأنطونيوس ، ومن العبث أن نستشهد على هذا الحب بنجواها الغرامية المتصلة وحدها كلما جمع المجال بينها وبين أنطونيوس ، فلقد تتهم هذه النجوى بشيء من المبالغة والرياء ، وخير أن نقصر هذا الاستشهاد على حديثها عنه فى غيبته ، إذ تقول :

علم الله قد خذلت حبيبي

وإذ تقول فى موقف آخر :

هو أنطونيوس ذخرى وطريفى وتليدى

وعلى الوفاء له بعد موته ، وقد أسلفنا عليه الدليل ، ومهما يكن من اتقاد هذه العاطفة فى قلبها فقد كانت لديها كما قلنا عاطفة ثانوية ، كلما تعارضت مع حبها لمصر ، ففى سبيل وطنها كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء ، وكانت تعتقد حقيقة أن :

المجد لا يسأل عن صاحبة ولا ولد

وكانت مخلصة حينما استنهضت حماسة أنطونيوس بهذه الكلمة الجامعة :

عد ظافرا أو لا تعد

وآية استعدادها للتضحية بغرامها فى سبيل سياسة بلادها قولها عقب فرارها من أكتيوم :

علم الله قد خذلت حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذخرى
والذى ضيع العروش وضحى ... فى سبيلى بألف قطر وقطر
موقف يعجب العلا كنت فيه ... بنت مصر وكنت ملكة مصر

(الثالثة) بغضها لروما وإشفاقها من طغيان سلطانها المكين .

ويبدو هذا البغض فى عدّة مواضع . منها قولها :

لا تسيروا على ولائم روما ... سرفا فى الفسوق واستهتارا

ومنها قول أحد القوّاد الرومان لزميل له :

أتسمع ما تقول عدوّ روما ؟

وقولها :

دعوا روما ولا تجروا لها ذكرا

وقولها :

حبرا أعندك سحر ... يشل طاغوت روما؟
ويجعل الناس فيها ... حجارة و رسوما

وقولها فى موقف مفاضلة بين ألوان الشراب :

دنان مصر لا دنان الروم

ثم شعور الناس جميعا — حتى خصومها — بذلك البغض، وفى ذلك يقول حابى لزينون قبل أن ينزل عن رأيه فيها :

ولم يبق على الود لروما غير زينون

وإشباعا لهذه العواطف جميعا رسمت كليوباترا لنفسها ثلاث غايات :

(الأولى) أن تستخلص الشرق لنفسها مستقلا عن كل نفوذ .

(الثانية) أن تضعف قوى روما ما استطاعت مع المحافظة على قواها هى .

(الثالثة) أن تعكس الآية السياسية الموجودة يومئذ، فتسود روما من خلال سيادة قيصر ضعيف تضمن أن يخضع لفتنة جمالها دائما، كما تضمن أن يخشى قوة بأسها ثانيا ، وكل هذه الشروط كانت تجتمع فى أنطونيوس . وتحمل كليوباترا غايتها الأولى والثالثة فى قولها لأنطونيوس :

أنت لروما فى غد وقيصرون بعد غد
والشرق سلطانى الذى إكليله لى انعقد

ثم تبسط غايتها الثالثة إذ تقول :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القـوم فى عداوة شطر

... ...

وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

والوسيلة التى ظنتها كليوباترا كفيلة بتحقيق هذه الغايات ، أن تقف من القيصرين المتحاربين موقف الحياد ، فقد كانت تؤمن بتكافؤ قواهما الحربية ، لأنهما «تقاسما الفلك والجيش» وبات كلاهما :

... ... شطـ ـرا من القوم فى عداوة شـطر

وقد أثبت تداول النصر بينهما قبل المعركة الفاصلة صدق هذا اليقين . وقدّرت كليوباترا أن حيادها هذا يكفل لها الاحتفاظ بقواها فى البر والبحر ، بينما ينهك القتال قوى القيصرين — المنتصر منهما والمخذول — حتى إذا قرت الحرب بينهما ظهرت بجيشها وأسطولها ، لتجهز على أكتافيوس — إذا ظفر — وهو متعب منهوك ، ولتحيي أنطونيوس — إذا كان هو الظافر — تحية القوى للضعيف ، لا تحية التابع للمتبوع . لكن الحياد الصريح كان معناه المحتوم أن تفقد أنطونيوس ، وأن تفقد كل أمل فى هواه ، وأن ينهار بفقدان هذا الأمل صرح أمانيها جميعا ، فاصطنعت كليوباترا

لنفسها حيادا مقنعا نتظاهر فيه بالقيام بنصيبها من أعباء الحرب الى جانب أنطونيوس ، حتى إذا نشبت المعركة فرت بجيشها أو أسطولها، تاركة لفرار أنطونيوس القوى مهمة التماس الاعذار لضعفها وفرارها من حومة القتال ، ناطقا على لسانه :

فقلت انسحبت ضعفا وقال النـاس بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

ومهمة أخرى هي إلقاء تبعة الغدر والخيانة على من يشاء من قوّادها :

فياقائد الأسطول هل من مكيدة تدبرلي خلف الشراع وما أدرى؟

وما من شك أنها مهمات يسيرة، إزاء مهمة الاعتذار لخيانتها السافرة لو أنها وقفت منه موقف الحياد الصريح ! وما من شك كذلك أن هـذه المهمات قد أداها غرام أنطونيوس بنجاح فقد عفى عن ضعف حبيبته مرتين ومات راضيا عنها كل الرضاء .

ونستطيع استخلاص هـذه الخطة التى اتخذتها كليوباترا من أربعة مواضيع :

(الأوّل) فى موقف كليوباترا من حاشيتها بعد وقعة أكتيوم، تبرر فرارها فى هذه الأبيات :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القوم فى عداوة شطر

بطـلاها تقاسما الفـلك والجيـ ـش وشـبا الوغى بحـر وبر
فتأملـت حالـتىّ مليـا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سللت شراعى منـه فانسلت البوارج إثرى
خلصت من رحى القتال ومما يلحـق السفن من دمار وأسر

(الثـانى) فى قول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

ولقد يلقى قول كليو باترا فى استقبال أنطونيوس على أثر عودته ظافرا فى اليوم الأول من يومى المعركة البرية :

هـو والله نشـيدى والمغنـون جنـودى
والمخـاريق الـتى تخـ ـفق من بعـد بنودى

لقد يلقى هذا القول ظلا من الشك على مسايرة خطة الانسحاب من المعركة لسياق الرواية ، يعززه أن أنطونيوس لم يأخذ عليها فرارها من هـذه المعركة كما أخذ عليها فرارها من أكتيوم ، لكن هذا الظل المريب يتضاءل ويفنى حينما نعلم أوّلا أن كليو باترا لم تشترك فى هذه المعركة بتاتا ، فقد « آلى وأقسم » أنطونيوس :

... ... لا يرى فى قصرهـا حـتى يقوم مجـده المنهار

وظل فى حنقه وغضبه منها «بأقرب ثكنة» من الأسكندرية يدعو من الرومان — وحدهم — من يختار :

ويعدّ أهبته ليوم حاسم فى البر يغسل عنه فيه العار

وحينما نتمشى ثانيا مع قول كليوباترا قليلا، فنسمعها فى فرحها بعودته تقول :

ولديها فارس ملـ ـثم شاكى الحديد
هو أنطونيوس ذخرى وطريفى وتاليدى

فهى لم تفرق بين جنود أنطونيوس وأعلامه، وبين جنودها هى وأعلامها ، ولكن ذكرت نوعا واحدا من الجنود والأعلام والأناشيد، وقالت هم جنودى وأعلامى وأناشيدى، لأنها فى غرورها الفخور وفى ثقتها بجمالها وحب أنطونيوس لها وحبها لأنطونيوس، كانت تعتقد ما قالت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »، وترى على هذا أن كل ماله إنما هو ملك لها، وكان أنطونيوس بدوره يتناسى فى انتصاره عتبه الأول، ويتناسى فى غرامه أناشيد روما وأعلامها، ويتخذ أناشيد مصر وأعلامها، ويترك أسطوله « يعب تحت هذه الأعلام »، وجيشه يتغنى بهذه الأناشيد، وفاء لها بما أخذه لها على نفسه، أنه « مصرى » وأنه « تابعها الوفى » وأنه ما فى سوى رضاها له مضى .

(الثالث) قولها لأنوبيس :

وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهـر المدينـة شـبا الوغى
أما جيشها هي فسياستها تعلم أين كان !

(الرابع) قولها لأنوبيس كذلك :

أبي أعلمت أن الجيش ولى وأن بوارجي أبت المضيا ؟

فكليوباترا هنا تشكو من أن بوارجها أبت المضى، لكن متى حدث هذا الإباء ؟ هل كان ذلك في معركة أكتيوم؟ طبعا لا... لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان هناك سبيل لشكاة كليوباترا من أمر هي صاحبة الرأى فيه، ولما كان هناك سبيل للتعبير عن فرار الأسطول يومئذ بأنه « إباء » أى تمرّد ، وهي الآمرة بالفرار وأسطولها لم يعد ان سمع وأطاع ، ولما كانت هناك فائدة في إخبار أنوبيس بنبأ قد عرفه منذ حين ... إذن لابد أن هذه البوارج قد أبت المضى الى الحرب بعد هزيمة أنطونيوس الأخيرة ، وقد يبدو — وإن كان ذلك في شيء من الغموض — أن كليوباترا تنفيذا لما بسطنا من خطتها أرادت أن تضرب أكتافيوس عقب انتصاره كما قدّرت ، فأهابت بأسطولها أن يمضى فأبى هذا المضى، وأهابت بجيشها أن يمضى فولى الأدبار ... اعتاد كلاهما لذة الدعة وراحة الفرار، ومن هذه العادة جنت كليوباترا ماغرست فيهما من بذور

الضعف والخور، وتحطمت خطتها وسياستها على صخرة عاتية وقفت لديها تعض بنانها ندما وتقول :

أيها العين أبصرى إنما كنت فى حلم

مواطن الضعف فى هذه السياسة

(أوّلا) أخذ أنوبيس على هذه السياسة بصفة عامة أن كليوباترا كان يجب أن تخلص فى عون أنطونيوس ،فيكون الأمل فى الظفر أقوى، وذلك حيث يقول :

تركتم أنطونيو س وحده يلق العدا
من أجلكم سل الحسا م وإلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو التـ ـفقتم على اللوا

لكن حسن الظن فى كليوباترا قد يستطيع الاعتذار لها بأنها كانت تريد الى جانبها قيصرا ضعيفا يمكن أن يرث عنه القيصرية ولدها قيصرون، لا قيصرا قويا قد تفقد سلطانها عليه إذا تعرض غرامه للذبول .

(ثانيا) قدّرت كليوباترا أن يظل أنطونيوس فى المعركة بعد فرارها نخانها التقدير، وفرّ فى أثرها أنطونيوس :

لم تأت حتى جاء فى آثارها للحب أجنحة بهن يطار

(ثالثا) لم تقدّر ما يحدثه فرارها من الضعف المعنوى فى جيش أنطونيوس ، وآية هذا الضعف قول أوروس لمولاه :

وخلفت فى عسكر كالنعاج   كثير الثغاء قليل الغنا
فمن يائس مات قبل القتال   ومن خائن فرّ قبل اللقا

(رابعا) صراحتها الطائشة فى إعلان بغضها لروما أمام الرومان ، واضطرارها أنطونيوس أن يظهر بهذا المظهر كذلك أمام قوّاده ، مما أحنق أولئك القوّاد وجعلهم يقولون :

سنلبث ساعة نحتال حتى   إذا سلت عقولهم انسللنا
فما المتدله السكير أهلا   لتنصره السيوف إذا استللنا

ونرى أثر هذا الحنق حينما يقول أنطونيوس :

جنود أكتاف أدركونى   يا ليتنى مت قبل هذا

فيجيبه جندى رومانى :

لا بل جنودك لكن   خانوك حبا لروما

(خامسا) عدم اتعاظها بضعف سياستها بعد معركة أكتيوم ، وتكرار الانسحاب وتكرار الهزائم .

(سادسا) اعتمادها على جيش وأسطول علمتهما الهرب من ساحة القتال ، وقصارى ما نستطيع أن نقول فى سياسة كليوباترا

إن عينها كانت ترى ما وراء الأفق وتعمى عمـا تحت أنفها من عثرات ، وإن هذه السياسة ليست المسئول الوحيد عن هذه الكارثة التى انتهت بها حياة كليو باترا ولكن هناك مسئولا آخر هو الضعف النفسى الذى تحكم يومئذ فى أنطونيوس .

* * *

ولعل خير إطار تحلى به هذه الصورة الجامعة المتسقة الألوان لحياة هذه الملكة هو تأبين أنوبيس لها :

بنتى رجوتك للضحية والفدا فوجدت عندك فوق ما أنا راجى
إن تصبحى جسدا فنفسك حرة وعلاك سالمة وعرضك ناجى
سيقول بعدك كل جيل منصف ذهبت ولكن فى سبيل التاج

أنطـــونيـــوس

رسم المؤلف صورتين لأنطونيوس الجندى فى هذه الرواية :

(الأولى) صورته قبـل أن يتصـل بكليو باترا أيام أن كان يضحى بالهوى فى سبيل المجد .

(الثانية) صورة أنطونيوس بعد أن عرف كليو باترا وأصبح يضحى بالمجد فى سبيل الهوى .

ونرى الصورة الأولى حينما يذكر أنطونيوس — وهو مشرف على الموت — أيام صباه فيقول :

وأيام يدعونى الهــوى فأجيبه ... وينفخ فى البوق المنادى فانبرى
فتنت الغــوانى برهــة وفتننى ... ولكننى عن سـؤدد لم أقصر
فهمة قلبى فى شراب وصبوة ... وهمــة نفسى فى علاء ومفخر
أروس تواقفنا على كل غمرة ... وكل مجال ثائر النقع أكــدر
وفى مهرجان الفاتحين وعرسهم ... وتحت لواء أو على عــود منبر

فنراه من خلال هذه الصورة ، شجاعا ، ظافرا ، خطيبا يشبع عاطفته ولكن إلى الحد الذى لا يقف به فى سبيل المجد عن غاية .

ونرى الصورة الثانية حيث يفرّ أنطونيوس من معركة أكتيوم وفى ذلك يقول حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها ... للحب أجنــحة بهنّ يطــار

وإذ يخرج به الهوى من معركة لو استمر فيها لكتب له النصر الأخير ، وذلك إذ يقول لكليوباترا عقب انتصاره المؤقت :

ومالت الشمس أوكادت فراجعنى ... شوق إليك عديم الدار ســوار
حتى رجعت ولو أنى طردتهم ... لبات أكتاف عندى وانقضى الثار

وإذ ينسى بلاده ووطنيته وجنسيته فى حب كليو باترا فتستطيع أن تقول :

... ... دعــوا روما ولا تجـروا لهـا ذكرا
فمـا أنطونيـو منهـا وإن كان ابنهـا البكرا
ولكن تحت أعـلامى يقـود الـبر والبـحرا

فيسأله قائد من قواده :

أحـق مارك أنطونيو س من روميـة تـبرا؟

فيجيبه :

أجل أتبـع مـولاتى ولا أعصى لهـا أمرا

وإذ تستطيع أن تقول :

أنطونيو ما أنت رومانى ألم تقل إنك لى جندى

فيجيبها :

أجل وزدت أنى مصرى وأنى تابعــك الـوفى
ما فى سوى رضاك لى مضى

وإذ يقول هو والخطاب لروما :

إن الذى بالأمس زنت جبينه بالغار عقك جهده وعصاك

وإذ يقول له قائد من قواده :

ألا إنـه ليـسل له ماوراءه غرامك حى فيه والمجد ميت

وآخر :

فما المتدله السكير أهلا   لتنصره السيوف ... ...

وثالث :

حياته في يديه   أم في يدى كليوباترا

وإذ يناجى هو «إلهته» كليوباترا :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى   وتركتنى نفسا بغير ملاك

وإذ يفقد مزية الجندى الباسل فى ساحة الوغى، تلك المزية التى أثبتها لنفسه حين سألته كليوباترا :

... ...   أسالم أنت لا أسر ولا عار؟

فأجاب :

أسر ؟ وهمت كليوباترا ...   .

او قلت قتل لكان القول أشبه بى   كأس المنايا على الأبطال دوار

وتلك هى مزية الثبات التى يفقدها أنطونيوس بفراره من أكتيوم ثم فراره من المعركة البرية الثانية إذ يقول :

جللت نفسى بعار   يبقى بقاء الزمان
لما حملت جوادى   على الفرار ازدرانى
وضج منى سيفى   وضج منى سنانى

وودت الأرض تحتى لو طهرت من عيانى
أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى
كان الملوك عبيدى فصرت عبد الحسان

على أن المؤلف ترك له ما سوى هذا من مزايا الجندية ، فجعله على لسان كليوباترا :

جيشا بمفرده فى الروع جرار

وجعله على لسان حبرا « إله الحرب » .

وجعله على لسان أوروس « إله الوغى » حيث يقول :

رأيتك والحرب تبلو الكماة فأشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا
وكنت إذا الموت أفضى إليك تحديته فانثنى القهقرى

وجعله على لسان جندى رومانى :

... ... هيكلا عز فى الرجال ضريبا
... ... خير من هز رمحا أو نضا صارما ولاقى الحروبا

وجعله على لسان كليوباترا :

محور الأرض وميزان الشعوب

وجعله على لسان أكتافيوس « سيفا باترا لروما » :
ضمن أمثلة من هذا النوع تناثرت فى الرواية .

لكن هــذه المزايا الباقية لم تغن عنه شيئا إزاء ضعفه النفسى الذى أفاضه عليــه اندفاعه الأعمى فى هواه ، وجعــله من حيث طاعته لكليو باترا « كهمج الاسكندرية » .

ثم صــوّر المؤلف صورة أخرى لأنطونيوس من حيث هو رجل فنراه من خلال هذه الصورة : غفورا يتجلى غفرانه لكليو باترا مرة بعد أخرى ، ويبدو ذلك فى قولها له :

وكم حقدت ثم أصبحـ ـت كأنــ لم تحقد

رحيم القلب ، بشوش الوجه :
وتبدو رحمته وبشاشته فى قول كليو باترا :

ليس العبوس ســنة لوجهك الطلق الندى
ولست من يغضب فى ليــل الشراب والدد
ولست للكأس على شاربهــا بالمفســد
قلبك كنز الحب والــر حمـــة والتـــودّد

أكتافيوس

يظهر أكتافيوس فى الرواية قائدا عظيما قويا ويبدو ذلك فى انتصاره وفى قوله «وما أنا إلا سيف رومة» وفى قول كليوباترا :

إن اسطعت على ما لك من بطش ومن فتك
وما حولك من خيل وما تحتك من فلك

وسياسيا :

ويبدو ذلك فى المعاهدة التى أراد أن يخدع بها كليوباترا ليتخذها شارة فى موكب انتصاره .

أنوبيس

يتمثل فى الرواية مصريا شديد الغيرة على مصريته .

ويتجلى ذلك إذ يقول :

إيزيس كيف أصلى على ابن يوليوس قيصر
أبوه عال ولكن فرعون أعلى وأكبر

وإذ يوحى إلى كليوباترا فكرة الانتحار عطفا عليها من حيث هى ملكة مصرية وحرصا على كرامة التاج المصرى ، ويتضح ذلك فى حواره حول أفاعيه وإذ يختم هذا الحوار قائلا :

يمينـا بإيزيس أحملهن إليك ولو فى سـلال الخضر
إذا بات فى خطر تاج مصر سبقت إليـك بهنّ الخطـر

وهو من هذه الناحية موزع بين عاطفتين :

(الأولى) عطفه على كليوباترا .

(الثانية) بغضه لروما .

ويتجلى هذا البغض فى قوله :

حابى أحيط القصر بالذئاب وبى من السخط عليهـم مابى

لكنه لم يكن ينسى فى هذا البغض أن آمال مصر معقودة على انتصار أنطونيوس . وقد رأينا أثر ذلك فى سياسة كليوباترا .